الفصل الرابع

كاتب الإنشاء
(1): لمحة تاريخية وأوضاع الكاتب

قال الكاتب علي بن زيد للملك: «لن أفشي لك سراً، ولن أتوانى عن نصحك، ولن أوثر أحداً عليك»[1].

قبل البدء في دراسة أوضاع وأحوال الكاتب في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث لا بد من الإشارة إلى أنني وجدت في بحث سابق أنه من الضروري تقويم الوضع الاجتماعي والفكري لجماعة معينة من العلماء ومقارنة ذلك مع نظرائهم، ففي ذلك البحث كنت أدرس العلاقة بين علم النحو والصرف أو قواعد اللغة وعلم دلالات الألفاظ وتطورها، وقد وجدت أنه من المفيد بصفة خاصة أن أدرس وضعية فئة علماء النحو في تلك الطبقة المثقفة في المجتمع الإسلامي في العصر قبل الحديث[2]، وواقع الأمر أن أحداً لم يكتب شيئاً عن هذا الجانب من حياة عالم النحو، والقول نفسه ينطبق على الكاتب[3]. لذلك قررت أن أقارب الوضع الاجتماعي العام للكاتب عن كثب في هذا الفصل والفصل الذي يليه وأن أتطرق بالتفصيل للحديث عن الصفات الواجب توافرها فيه ليلبي متطلبات عمله.

من المعروف أن بعض المتطلبات اللازمة لمهنة الكاتب قد عرفت وطبقت في أثناء مدة تزيد قليلاً عن مئة عام بعد ظهور الإسلام، وبسبب أهمية ما قدمه عبد الحميد الكاتب لتاريخ هذه المهنة وتطورها كتبت المؤلفات والمقالات العديدة عنه وعن أعماله، تركز بعض هذه الأعمال على القضايا الاجتماعية والتاريخية في رسائل عبد الحميد مثل أمور تتعلق بالدولة، في حين تركز مؤلفات أخرى على أسلوبه في كتابة الرسائل، ونحن هنا ليس بوارد في ذهننا تقديم دراسة مفصلة لما قدمه عبد الحميد في إغناء

معرفتنا بالأحوال التاريخية الباكرة لمهنة الكاتب لكن يجدر بنا التوقف قليلاً لنتأمل في بعض العناصر الأكثر بروزاً في أعماله.

والمصدر الممتاز الذي منه نستمد هذه المعلومات فصل كتبته وداد القاضي بعنوان «أثر القرآن في أدب الرسائل عند عبد الحميد الكاتب»، والعبارة القائلة: إنه «يعد بحق مؤسس النثر العربي»[4] التي ذكرتها تذكرنا بتلك الحلقة الأساسية الواصلة بين الكتابة النثرية العربية (أو الأدب عموماً) وتلك الأهمية المتصاعدة للكاتب في المجتمع الإسلامي. وإضافة إلى ذلك فإن أهمية رسائله، الرسمية وغير الرسمية، تكمل الدائرة التي على أسسها تقوم هذه الدراسة، أي الكاتب -الكتابة النثرية-أدب الرسائل. هذا الفصل الذي كتبته وداد القاضي له أهميته العلمية ليس بسبب ما يتضمنه من معلومات فحسب، بل - أيضاً - بسبب ما يهمله بحكم الضرورة. فمثلاً، مع أنها تتعمد التركيز على حقبة تاريخية ضيقة إلا أن لتعليقاتها بأن رسائل عبد الحميد الموجهة إلى أصدقائه لا تحمل أي إشارات للقرآن أهمية بالغة من منظور ارتباطها بالزمن، ولا سيما أن البيئة في أدب الرسائل المتأخر التي اقتبست آيات من القرآن كانت بيئة خاصة جداً، وكان استخدامها مقتصراً على الرسائل الرسمية[5]. ويبدو أن إغفال الاستشهاد بآيات من القرآن في الرسائل الموجهة إلى الأصدقاء كان أمراً مسلَّماً به في رسائل عبد الحميد، بينما ذكر ذلك في أدب الرسائل المتأخر وعلى أنه أمر مسلّم به أن الرسائل غير الرسمية (أي الرسائل للأصدقاء، وأيضاً الرسائل غير الرسمية الموجهة إلى الولاة والحكام وغيرهم) لا تتضمن آيات من القرآن الكريم، وما يثير الاهتمام بهذا الصدد أن الشعر كان له دور مختلف في أواخر العصر قبل الحديث، ولا سيما أنه لا يستخدم إلا في الرسائل غير الرسمية، وليس في الرسائل الرسمية[6]، وهذا ما أتينا على ذكره في الفصل الثاني المذكور آنفاً.

ومن جهة أخرى، فإن بعضاً من المقتضيات الثقافية والتعليمية التي تحدث عنها كتاب متأخرون مثل ابن الأثير كان قد دونها عبد الحميد. فقد قال على سبيل المثال: «ابدأ [تعلمك] بمعرفة كتاب الله، وبعده معرفة الواجبات الدينية واللغة العربية والخط

الجيد، والشعر، وتاريخ العرب والعجم (قبل الإسلام)، وأخيراً الحساب»[7]. والجدير ذكره أن أسلوب عبد الحميد النثري قد أسس لتوجّه باكر في كتابة الرسائل علماً أن التوازي المتوازن الذي ميز أسلوبه السهل قد حل محله وعلى نحو تدريجي أساليب في الموازاة أكثر جزماً مثل تلك المتمثلة في كتابات الصاحب بن عبَّاد[8]. فتضمَّنت هذه الأساليب المترادفات والتضاد والتطابق في التراكيب[9]. فبات السجع والتكلف المصاحب له السمة السائدة في نثر الرسائل ابتداءً من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فصاعداً[10].

ثم ظهر التأثير الساساني الفارسي واضحاً جداً في التطورات الإدارية الأولى في الإسلام، مثلاً، كان الكاتب منذ العهود الأولى للمجتمع الإسلامي مرتبطاً بالديوان. ومع أن عبد الحميد الكاتب كان دون أدنى ريب المسؤول عن وضع عدد من الأسس الأدبية والفكرية والأخلاقية لدور الكاتب فقد كان زياد بن أبي سفيان (والمعروف أيضاً باسم زياد بن أبيه) (ت 53/ 673) أحد دهاة العصر الأموي، هو الذي انتقل بمؤهلات ومسؤوليات الكاتب إلى آفاق جديدة حين أضاف إلى دورهم في العراق واجبات حكومية[11]. ومن تلك اللحظة تنامت قوة وصلاحيات الكاتب إلى ما هو أكثر من مجرد واجبات الكتابة والنسخ، ثم تطورت تدريجياً بعد ذلك ليصبح دوره دوراً إدارياً متطوراً في خدمة الدولة، وقد تجلَّت هذه التطورات أيضاً في التغير العام للتركيز الطارئ على كتيبات التعليمات الخاصة بالكتاب؛ إذ تبدّل من مجرد توصيف للصفات الفيزيائية للكاتب وأدوات عمله إلى توصيف للمسؤوليات والصفات الفكرية. فكان الصعود في هذا النوع من الإنتاج الأدبي مرآة تعكس ذاك التنوع المتزايد للأعمال التي ألفت بخصوص قواعد وأحكام خاصة للملوك والحكام التي تبدو راسخة في فئتين متميزتين وتكمل الفئة الواحدة منهما الفئة الأخرى وهما: فئة «شؤون الدولة وسلوك الحاكم بصفته الرسمية»، والثانية هي «المبادئ الأخلاقية للسيطرة على الذات [وهي شرط سابق] للممارسة الصحيحة للسلطة»[12]. ومع مجيء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) (وهو عصر المماليك) بدت التراتبية الهرمية للسلطة في المجتمع الإسلامي في القاهرة كما يأتي: (1) الخليفة (2) الحاكم (السلطان) (3) نواب

الحاكم (في المدن والبلدات) (4) الكتاب – مثل كتبة الإنشاء ورئيس الديوان والقضاء وما إلى ذلك[13].

في هذا الفصل سنتعرَّف أكثر على أحوال الكاتب ووضعيته. ومع أن الكتَّاب كانوا مجرد جماعة واحدة من ذوي الاختصاص -إلى جانب العسكر والتجار على سبيل المثال- فباتوا أفراداً معترفاً بهم في أسرة العلماء، إلا أن الكتبة الذين حافظوا على هوية خاصة بهم هم الذين كانوا أكثر عزلة في جماعة العلماء من أي جماعة اجتماعية أخرى، وحتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على وجه الخصوص، وحيث إن عدداً من أوائل الكتاب كانوا من غير المسلمين فقد حافظت هذه الفئة على إعجابها والتمسك بنماذج ثقافة الكتبة السائدة قبل الإسلام ومحتفظة بـ «روح النظام المتواصل في خدمة الإمبراطور ودون إشارة قوية إلى الدوافع والغايات الإسلامية»[14]. وكان هذا النظام وروحه هو الذي أسهم في حصول ذلك التوتر بين الكتاب وأفراد جماعة العلماء.

ولكن على الرغم من هذا التوتر كان الكتبة جزءاً لا يتجزأ من تلك الجماعة التي دعاها مارتن إيرفن Martin Irvin «جماعة النصوص» التي كان لها إسهام كبير في «ثقافة النصوص» عند هذه الجماعة. فكانت الموضوعات الإنسانية في هذه الثقافة، مثل أدب الرسائل من حيث هو مجموعة من نصوص النثر الفني، على درجة من الأهمية تعادل غيرها، ومن الجدير ذكره في هذا السياق أن دور ما صنفه إيرفن في «قواعد النحو» وهي مجموعة من النصوص الخاصة بقواعد اللغة كان له «وضعية لا تشبه الآداب والعلوم الأخرى في العصور الوسطى؛ ذلك أنها هي النقطة الوحيدة للدخول إلى جميع مراتب المعرفة بالنصوص»[15]. غير أن إيرفن يذهب أبعد من ذلك حين يقول: «تعمل قواعد النحو على استدامة وإعادة إنتاج الشروط الأساسية الأكثر عمقاً لثقافة النصوص فتقدم القواعد المنطقية والإستراتيجيات التفسيرية التي أنشأت نصوصاً معينة لتكون مستودعات للسلطة وللقيمة»[16]. إذ ليس مستغرباً أن نجد قواعد اللغة تحتل الصدارة والمرتبة الأولى في قائمة الأشياء التي يتعين على الكاتب أن يعرفها، ولا بد لي من أن أقول بهذه المناسبة: إن الكتاب كانوا جزءاً أساسياً ومهماً من تلك «الأسرة

السياسية المتخيلة» كما وصفها أندرسون Anderson الذي كان أول من استخدم هذه التسمية في إطار تعريفه لـ «الأمة»[17] ومع أن الكتاب كانوا للوهلة الأولى جزءاً من جماعة صغيرة جداً من العلماء والمفكرين الدينيين والإنسانيين فقد كانوا برغم ذلك عناصر جوهرية من «الأمة» الإسلامية الأكثر اتساعاً، لا يعرفون معظم زملائهم فعلاً، ولكن يعيشون «صورة الصلة الحميمية التي تجمعهم» كما قال أندرسون[18].

كانت الأمور المالية واحدة من الجوانب الأكثر أهمية في ملامح حياة الكتاب وأنشطتهم، فمنذ عصر زياد ابن أبيه بدأ الكتبة يطالبون بامتيازات لأنفسهم كانت «تكتسب عبر علاقات التبعية في معظم الحالات» كما قال سلهايم وسوردل Sellheim and Sourdel. «فالكاتب يجب أن يخضع لولي نعمته ولأمزجته»[19] فإذا كان هذا التقويم صحيحاً فهذا يعني أن مصير الكاتب يخضع بقوة – على ما يبدو – لنزوات ولي نعمته، والامتيازات التي انتزعها قد تكون واحدة من أسباب الحسد الذي شعر به الآخرون من أفراد جماعة العلماء، وكذلك واحدة من الأفكار المثيرة للمناظرات الأدبية بين السيف والقلم التي ذكرت في موضع آخر أنها كانت انعكاساً لقضايا اجتماعية أكثر عمقاً؛ ذلك أنها تركيبات عبثية وعروض لمهارة لغوية وأدبية[20]. لكن الامتيازات الممنوحة للكتبة لم تكن شيئاً فريداً في التقاليد العربية الإسلامية، ولا سيما أنها كانت معروفة في التقاليد الفارسية التي يعود الفضل إليها في تقديم الكثير من التأثيرات الباكرة وحوافز تطوير جماعة الكتاب والأدب في المجتمع العربي الإسلامي. ففي كتابه المهم الذي يحاول عبره تتبع هذه التأثيرات وتعرّف مصادرها واتجاهاتها يحدثنا الجاهشيياري al-Jahsiyarı أن الملوك والكتاب والقضاة فقط كانوا يركبون الهملاج himlaj، وهو نوع معين من الخيول المعروفة في أيام الفرس[21]؛ لهذا نجد أن الكتاب في العصر الإسلامي قد ورثوا مجموعة من الامتيازات كانت تبدو – في حالات كثيرة – مصانة.

ولكن لا تفيدنا هذه المصادر كثيراً وعلى وجه الدقة عن مدى الكسب المادي لمنصب الكاتب، فمثلاً نعرف أن عدداً لا بأس به من العلماء المشهورين من أمثال التبريزي الذي اشتهر بغزارة علمه في اللغة العربية والأدب في المدرسة النظامية ببغداد، قد نأوا بأنفسهم عن هذا المنصب، وليس معروفاً ما إذا كان ذلك نتيجة لكونه غير أهل

للمنصب أو أنه رأى أن المنصب لا يصلح له. أو لعله قد استنتج أن التعويضات لا تكفي. ولكنّ هناك علماء آخرون، مثل ابن زكي الدين الدمشقي الذي اعترف الكثيرون بإجادته في كتابة الرسائل لكنه آثر العمل في مجال آخر، فاختار منصب قاضي دمشق، ولعل السبب في ذلك أن الأجر أفضل، وواقع الأمر أن منصب الكاتب لم يحظ باعتراف وإقرار بأنه معادل تقريباً لمنصب كبير القضاة إلا في العصر المملوكي[22]. ففي العصور السابقة كان الكتبة في الحكومة يبدؤون عملهم عادة في سن باكرة وبصفة تلامذة يتعلمون الصنعة، وكانت رواتبهم تدفع لهم من قبل رؤساء الدوائر الذين أشير إليهم فيما بعد بأنهم أصحاب فضل أساسيون في حياة كاتب الدولة، والمثال على ذلك ابن الفرات من العصر العباسي المتأخر الذي على ما يبدو قال: «إن عرفان المرء بجميل رئيسه لا ينسى، ودين المرء له لا يمكن التحرر منه»[23].

ومع إحداث الديوان جاءت الفرصة للشرف الرفيع، فقد أتيحت الفرصة للكاتب الآن ليضطلع بمسؤوليات إدارية رفيعة وكثيرة التعقيد في البلاد، ويبدو أن هذه الأهمية المتزايدة للديوان في إدارة شؤون الدولة تظهر نشوء المكتب (أو الديوان) البابوي في أوربة في القرن الحادي عشر الميلادي، حيث «انتقلت عملية كتابة الرسائل من مكتب وقيم المكتبة، إلى موظف مسؤول جديد يحمل لقب المستشار الفرنكي الذي ارتبط بشخص الحاكم وكان يسافر معه»[24]. تكشف لنا المصادر العربية أن تلك العلاقة الوثيقة بين الحاكم والكاتب لم تكن قط موضع شك، وعلى مدى حقبة زمنية معينة -واعتماداً على المصدر وهويته- غدت هذه العلاقة مسألة درجة الصلة والقرب.

كان ضياء الدين بن الأثير الذي أصبح واحداً من أكثر الكتبة نفوذاً وتأثيراً في عصره واحداً من العلماء الذين استثمروا الفرص المتاحة للكاتب، فكان المنصب الذي تقلده آنذاك مصدر قوة لإسهامه في فهمنا لدور الكاتب في العصر الأيوبي، فقد كان شخصياً كاتباً رفيع المقام بالرغم من أنه لم يكن محبوباً لدى رجالات الدولة، فكانت تعليقاته، على كثرتها عن غيره من العلماء، بعيدة كل البعد عن المجاملة، وطريقته في الحديث في كتابه المثل السائر كانت طريقة تعليمية ومواعظية في أغلب الأحيان،

تنم على تعال وتكبر وازدراء للغير[25]، غير أننا - قبل الانتقال لدراسة تصور ابن الأثير للأشياء التي تصنع الكاتب المجيد - نستطيع استخلاص بعض الاستنتاجات حول المناخ الذي فيه كان الكاتب يعمل، وذلك عبر معرفة علاقته بالآخرين.

يبدو أن قدراً كبيراً من القوة والسلطة قد منحت لابن الأثير في عمله، تعرّف القاضي الفاضل الذي لم يكن واحداً من الكتبة الذين نالوا أعلى درجات التقدير في العصر قبل الحديث فحسب، بل كان أيضاً يد صلاح الدين اليمنى في حروبه ضد الصليبيين. ويبدو أن ابن الأثير قد استفاد كثيراً من معرفته بالقاضي الفاضل ولا سيما أن هذا الأخير قد مكّن له موضعاً في خدمة صلاح الدين، ولكن لم يمض وقت طويل على ذلك حتى أثار ابن الأثير غضب القاضي الفاضل الذي غادر دمشق إلى القاهرة من جرّاء ذلك، ومع أن ابن الأثير لم يتجاوز الثلاثين من عمره فقد عرض عليه أن يختار بين أن يعمل في خدمة صلاح الدين أو ابنه الأفضل نور الدين بن أيوب. فاختار الأخير الذي أولاه رعاية خاصة، ويبدو أن المصادر التاريخية تتفق جميعاً على أن جميع أمور الدولة قد وضعت بين يدي ابن الأثير[26]، ولكن على الرغم من تلك السلطة التي حظي بها فقد كان دوماً في تحرك مستمر، ويبدو أنه لم يستقر في مكان واحد، وعندما عاد إلى الموصل فيما بعد أصبح كاتباً عند ناصر الدين بن نور الدين أرسلان شاه الذي كتب كتاب «الإنشاء» له، ومن الممكن أن يستخلص المرء من المصادر التاريخية أن العصر الأيوبي الذي فيه عاش ابن الأثير كان عصراً شهد فيه المجتمع الإسلامي الكثير من وسائل الترفيه والتسلية على هيئة كتب[27]، وأن أعداد الكتبة والشعراء والعلماء قد ازدادت على نحو كبير، ولا سيما إبان حكم سنجر (أواخر القرن الخامس وأواسط القرن السادس/يوافق القرنين الحادي عشر والثاني عشر) وإخوته[28]. يبدو أن المناخ الفكري في تلك الحقبة كان شديد الخصب ما جعل الكتبة يزدادون أهمية عبر أعمالهم العلمية، ولا بد أن هذا المناخ قد أفرز اهتماماً كبيراً في إنتاجهم الرسائلي. ولعل أكبر حاجة لإنتاج الكتاب قد ظهرت إبان العصرين الأيوبي والمملوكي، وذلك إبان الحروب ضد أعداء الإسلام ولا سيما الحروب الصليبية، ومن الشواهد على ذلك أمثلة أوردتها الآداب الرسائلية التي كانت تدعو للجهاد أو تدعو للطاعة وضرورتها.

غير أنه يجدر بنا التوقف قليلاً لنتأمل في هذا الجانب من أدب الكتاب ذلك أنه يعدّ إضافة مهمة للعناصر النظرية لهذا الكتاب، وقد أوضح ابن خلف على وجه الخصوص مواصفات وقواعد مختلف صنوف الرسائل ثم تحدث عنها القلقشندي بمزيد من التفصيل، حيث يزخر المجلدان الثامن والتاسع من كتابه «صبح الأعشى» بالمواصفات والقواعد النظرية وبالأمثلة العملية للمحتوى الفكري للرسالة في المجلد المخصص للحديث عن الرسائل «الرسمية»، أو كما كانت تسمى الرسائل الديوانية، حيث يوجد صنف من الرسائل في القسم المخصص للخلفاء والسلاطين وأولئك الذين هم من طبقة مماثلة تحض المسلمين على الجهاد، على سبيل المثال، ففي هذا الفصل يقول ابن خلف: إن الدعوة للدين شيء وحماية حمى الدين من الأعداء الذين يريدون غزوه شيء آخر، فهو يقول:

> «ولهذا فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه وأكد الأمر فيه وشدّده، والسلطان يحتاج عند الحوادث التي تحدث... أن يدعو إلى الجهاد ومقارعة الأعداء وصون حريم الملة وحفظ نظام الدولة»[29].

بعد ذلك يجب أن تتضمن الرسالة عبارات التسبيح والشكر لله تعالى، وأمثلة مفصّلة تتحدث عن الأوقات التي فيها شارك النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] في الجهاد وكيفية تعامله مع الكفار، وما إلى ذلك، وخلاصة القول: إن مهارة الكاتب تفصح عن نفسها بالطريقة التي بها يجمع بين خدمته للحاكم مع الاستحواذ على نصيب من المكافأة أو الثواب [الأبدي]. وعندما يرسل الحاكم رسالته إلى من يقيمون عند حدود الدولة أنه إذا كُتب عن الملك في أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم -إنه يبسط القول في وصف العزائم وقوة الهمم وشدة الحمية للدين وكثرة العساكر والجيوش، وبغية تشجيع الناس يجب عليه أن يقوي قلوبهم ويذهب عنهم الخوف، ويطنب في الحديث عن آمالهم ويحثهم على التيقظ، وهذه الأمور كلها يجب أن يعبر الكاتب عنها بأبلغ العبارات وبالأسلوب القوي الشجاع بعيداً عن أي ليونة وتأنق[30]. فهذا المثال يعطي القارئ فكرة واضحة عن نوع القيم والمعايير التي يضعها الكتّاب لنظرائهم حول كيفية إنشاء الرسالة طبقاً لأهدافها وموضوعها.

يقول مايكل تشامبرلين Michael Chamberlain في كتابه المميز حول المعرفة والعمل الاجتماعي: «إن الأعمال الفكرية والعلمية لا يمكن أن تتقدم وتتحسن بالقلم وحده»[31]. ويستشهد تشامبرلين بحالة واحد من العلماء كان أعظم علماء عصره علماً ومعرفة وله قلم أشد حدة من اللسان، لكنه «لم يكن له نصيب من الدنيا» ولم ينل نصيباً يضمن له راتباً جيداً، وليس مستغرباً أن نجد هذه البيئة التنافسية قد أسهمت في خلق مناخ لتنافس شديد جداً بين أفراد طبقة الكتاب مثلما كان الحال لدى علماء النحو[32]. وبالرغم من تلك الأحاديث الفكرية المتبادلة بين العلماء التي أتينا على ذكرها في مطلع الفصل الأول التي توضح مدى قوة وحيوية العصر، إلا أنها في الوقت عينه تعكس روح التنافس لدى الكتاب، حيث كان كل واحد منهم يحاول الفوز بالتفوق الفكري على غيره. وخير مثال على ذلك المراسلات المتبادلة بين القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني في أواخر العصر الفاطمي ومطلع العصر الأيوبي[33]. وهناك مثال آخر يحكي قصة شاعرين كانا بصحبة الخليفة المأمون وكانا يتنافسان لكسب وده، حيث طلب من أحدهما أن يحسن جودة شعره أمام منافسه وأمام الخليفة نفسه، وذلك إلى أن تمكن من إسكات نقد الأول وإرضاء الآخر[34]. وهناك نقطة أود التأكيد عليها في هذا السياق، ألا وهي أن الموهبة الأدبية -ونقصد بها القدرة على التأثير في عقول الناس بما يتمتع به المرء من أصالة وبلاغة في الكلام- أكثر أهمية من نبل المحتد، لكي يصبح المرء كاتباً لدى الأمير، مع أن المحاباة والحفاظ على ود الحاكم تؤدي دوراً مهماً.

غير أن العلاقة بين الحاكم والكاتب بدءاً من عصر البويهيين فصاعداً (القرن الرابع هـ/ منتصف القرن العاشرم)، كانت شديدة التعقيد. فمن جهة توجد أدلة كافية تؤيد فكرة أن الرعاية الشخصية كانت عنصراً بالغ الأهمية في التقدم لمهنة الكاتب. ومع ذلك قيل في مواضع أخرى «لا يبدو أن الكاتب قد أصبح ربيب الحاكم»[35]. وفي هذا الصدد يقول موتاهده Mottahedeh: إن الحكام لم يكونوا الأشخاص الذين يرعون ويشجعون مهنة الكتبة، بل إن هذا الدور قد اختص به رئيس الدائرة أو القسم الذي يعمل الكاتب فيه. لكن موتاهده يذهب أكثر من ذلك مبيناً أن الحفاظ -أو الاضطرار للحفاظ- على مسافة من الحاكم يجعل الكاتب «أكثر قدرة من الجندي على تجاوز

تغييرات الأسرة الحاكمة والدخول في خدمة سيد جديد»[36]. وحيث إن الشاهد الواضح في المناقشة الآتية لا يشير صراحة إلى أن أي نفوذ استثمره الكاتب كان عبر الحاكم مباشرة، فإن قول موتاهده يجب أن يؤخذ على محمل الجد، فهو يدعي «أن (الحاكم) لا بد أنه قد شعر بشيء من الإحراج في إهانة وزرائه -وهذا إحراج لا يريده أي حاكم له نفوذه وأثره»[37]. ولكن يبدو أن ثمة شيئاً من الغموض في فكره حين يقول في موضع آخر من عمله: إن الكتبة شأنهم في ذلك شأن الجند «كانوا عرضة لأن يستغلهم الملك فوجدوا أنفسهم مجبرين على التوزع في فئات داخلية»[38].

وهنا تبرز أهمية المصادر التاريخية في فهمنا للإطار الاجتماعي الواسع الذي فيه كان الكتَّاب يعملون فيه. نحن نعلم من هذه المصادر - على سبيل المثال - أن الكاتب كان قادراً على الارتقاء إلى منصب المسؤولية بناءً على توصية واقتراح من كاتب زميل له، وهذا ما حصل لابن الأثير الذي أوصى به القاضي الفاضل بعدما توسل له. ونحن نعلم أيضاً من قراءة بعض مصادر التراجم أن ابن الأثير كان رجلاً مثقفاً وأنه تدرب جيداً على المهارات المطلوبة لعمل الكاتب، مثل حفظ القرآن عن ظهر قلب والعديد من الأحاديث النبوية. لكن المجتمع الإسلامي في ذلك العصر شهد العديد من العلماء الذين وصلوا إلى هذا المستوى من العلم والمعرفة؛ لذلك يبدو أنه قد يجب على المرء أن يسعى لفتح ثغرة ينفذ منها وليحظى بوجود شخص في السلطة أو للوصول إلى شخص ما له منصب رفيع، كما توضح لنا تلك المصادر التاريخية كيف يستطيع الكاتب الاستمرار في منصبه بالرغم من انعدام شعبيته على نطاق واسع، وبالرغم أيضاً من شخصيته غير المحبوبة. هكذا كانت شدة الاستياء من بعض انتقادات ابن الأثير لمفكرين كبار مثل ابن جِنّي وأبي العلاء المعري، حتى إن ما لا يقل عن مقالتين اثنتين داحضتين كتبتا ضده. ولن أذهب بعيداً لأقول إن الكاتب كان يستطيع بسهولة أن يسيء استعمال منصبه، وليس ذلك اعتماداً على هذا الدليل وحده على أي حال، ولكن ليس من السهل عدم تقبُّل فكرة أن مستويات المحاسبة كانت محدودة، ولا سيما حين يصل الكاتب إلى منصبه عبر اتصالات شخصية من نوع أو آخر.

ما نعرفه في هذه الأيام بأنه نوع من السرقة الأدبية أو انتحال أعمال غيره كان يعد في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث وجهاً من وجوه الحفظ والصون أولاً وأخيراً، حيث كان العلماء ينسخون أعمال من سبقهم، ولا سيما أعمال العلماء البارزين، أو كانوا يعتمدون كثيراً على أعمالهم. ومع أن بعض التعيينات في تلك الأيام كانت تعد بمعاييرنا شكلاً للمحاباة، إلا أنه كان أمراً عادياً عند العلماء في أي فرع من فروع المعرفة في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث أن يجدوا مكاناً صغيراً مريحاً لهم في حقل تخصصهم عبر مساعدة عالم آخر، أو حتى فرد من أفراد العائلة قد يكون في كثير من الأحيان واحداً من العلماء. لذلك ليس مستغرباً أن نجد علماء مثل ابن الأثير يصلون للمنصب الذي هم فيه عبر مساعدة يتلقوّنها أو عبر اتصالات يعرفونها. والمصادر التاريخية تزخر بشواهد لهذه العملية، وقد كان ابن فضل الله العمري (ت 750هـ/ 1349م)، من أشهر كتاب العصر المملوكي، وقد اعتمد القلقشندي كثيراً على أعماله حين ألف كتابه صبح الأعشى، يبدو أن العمري هذا قد تعلم سر المهنة هذه من والده الذي ذهب إلى مصر لمساعدته حين كان الكاتب «أمين الأسرار». فقد مارس العمري بعض جوانب هذه المهنة حين كان يقرأ البريد للوالي الناصر محمد، بالإضافة إلى قيامه ببعض الواجبات الأخرى العديدة[39]. كما تعلَّم العمري أيضاً صنعة الكتابة على يد شهاب الدين الحلبي مؤلف كتاب «حسن التوسل» وكان شخصياً من أفضل الكتبة[40]. لقد وصل العمري إلى منصب الكاتب أمين الأسرار، وهو منصب لا يصله إلا أفضل الكتبة[41]، وظل على هذه الحال أعلى منصب للكاتب طوال العصر المملوكي[42].

وفي المقابل، بين أيدينا دلائل كافية تبين أنه كان ممكناً لشخص ما أن يكون له دور مؤثر في أمور الحكم دون أن يعطى فعلاً المنصب الرسمي للكاتب، والمثال على ذلك ابن المقفع (ت 138هـ/ 756م)، الذي عاش في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي. فقد فرض ابن المقفع معرفته العميقة بالتقاليد الإيرانية على المسائل السياسية في زمانه[43]. فقد خاطب الخليفة في واحدة من مقالاته المكتوبة بخصوص بعض الأمور الحساسة جداً في السياسة مثل فكرة أن الدين يجب أن يكون بيد الأمير، لكن الأمثلة

من هذا النوع قليلة ونادرة ويبدو أن ظهورها في عصور متأخرة كان أمراً بعيد الاحتمال ولا سيما أن دور الكاتب قد تغير وتوزعت السلطة بين الوزراء.

من جهة أخرى كان ينظر إلى تعلم المرء لمهنة ما من أستاذ في المهنة في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث على أنه شيء يحظى باحترام وجدارة كبيرين، والد القاضي الفاضل على سبيل المثال كان قاضياً[44]، ومنصب القاضي منصب رفيع، فكان من شأن ذلك أن ساعد الابن للارتقاء سريعاً في المناصب، ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن أعمال الكاتب التي تعتمد على مرجعيتها الخاصة إلى حد كبير وعلى خبرة وتجارب المؤلفين -خلافاً لكتاب صبح الأعشى للقلقشندي - مثلاً - الذي تضمن اقتباسات عديدة من مصادر أخرى، كانت في كثير من الأحيان قادرة على اكتساب تلك المرجعية من المعلومات التي تنتقل إلى المؤلف عبر أفراد أسرته، وخير مثال لذلك عمل العمري الذي اكتسب معرفته بتنظيم البريد من عمه الذي كان كاتب إنشاء في دمشق[45]. ومع أن هذه المرجعية قد تكون لمصلحة الكاتب نفسه إلا أنها من المفترض أن تؤدي إلى اتهام الكاتب بإساءة استخدام هذه المعلومات.

ولكن إن وضعنا جانباً تلك المسألة الثقافية حول ما إذا كانت المحاباة من وجهة النظر الغربية تجد لها معادلاً لسلوك مماثل في الثقافات العشائرية قد يبدو من شبه المؤكد أن شكلاً ما للمحاباة قد حدث في مهنة الكاتب، وقد لحظ دروبي حالة واحدة للمحاباة أو المحسوبية ذكرها إسكوفيتز Escovitz حيث قال: «اتخذت هذه المحاباة أشكالاً عدة، ففي أبسط المستويات قد يرتب كاتب السر لواحد من أبنائه (أو أقاربه) ليحصل على منصب في الديوان»[46]. ولو كانت المحاباة قوة دفع في هذه الثقافة آنذاك فقد تكون أحد أسباب تلك الحقب الممتدة للوظيفة التي تمتعت بها بعض الأسر التي انخرطت في عمل الكاتب، والشاهد على ذلك الاستقرار الجديد لأسرة بني فضل الله الذين خدموا في عهد أسرة المماليك ما يزيد عن قرن من الزمان. ويبدو أنهم كانوا موضع ازدراء بني الأثير الذين كانوا يريدون إبعادهم عن السلطة، ومع ذلك فقد احتفظ بنو فضل الله بمواقعهم مدة زمنية طويلة[47]. ربما كانوا إداريين من الطراز

الأول ويمكن الوثوق بهم –وهذا شرط لمنصب الكاتب كما عرفنا، وشرط يسهل توافره لدى أفراد الأسرة الواحدة– ولكن لا بد أنهم قد أفادوا من مستوى معين من الدعم والعون الأسري لكي يظلوا في منصب قوي مدة زمنية مديدة. وواقع الأمر أنه كان ثمة ما لا يقل عن خمسة وعشرين مملوكاً تولوا السلطة في أثناء حقبة لم تتجاوز مئة وخمسين عاماً من الحكم، إلا أن عدداً لا بأس به منهم تمتعوا بالسلطة حقباً طويلة، منهم على سبيل المثال: الظاهر بيبرس الذي حكم اثنين وعشرين عاماً[48]. وهذا ما أعطى تلك السلالة من المماليك درجة معينة من الاستقرار.

والكاتب الآخر الذي يبدو أنه قد حقق نجاحاً في استغلال منصبه هو عماد الدين الأصفهاني (ت 597هـ/ 1201م)، وكان بارعاً في نظم الشعر الذي به يمدح أي حاكم يبغي منصباً لديه، كما كتب قصائد يمدح فيها القاضي الفاضل طالباً منه منصباً في الدولة[49]. وكما هو معروف كان القاضي الفاضل وثيق الصلة بالقائد الشهير صلاح الدين. ونتيجة هذه المحاولات أنيطت بالأصفهاني مسؤولية في دمشق للكتابة عند الوالي حين يكون القاضي الفاضل في مصر، يتضح من هذه القصة وغيرها مما جاء في المصادر التاريخية أن العلاقة بين القاضي الفاضل والأصفهاني كانت السبب الرئيس لتعيين هذا الأخير كاتب الرسائل عند صلاح الدين. ومع ذلك – وعلى الرغم مما قدم له – فقد أساء الأصفهاني استخدام تلك الثقة الكبرى التي منحت له؛ فقد ورد في الأخبار أن القاضي الفاضل وجده في يوم من الأيام عائداً من جلسة شراب شاركت فيها بعض النسوة[50].

الجدير ذكره أن في أدب الرسائل ولا سيما تلك المؤلفات التي ظهرت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تردد كثيراً استخدام لفظة «المولى» أو «من يحيا برعاية أمير المؤمنين». يبدو أن الكتَّاب قد استخدموا كلمة «المولى» وسيلة للتعبير عن سمو منصبهم وليس أسلوباً ينم على الاحترام في الإشارة إلى السلطة، والواقع أن هذا التفسير صادر عن واحد من أشهر وأبرز كتاب العصر الإسلامي قبل الحديث وهو هلال بن المحسن الصابئ، مؤلف كتاب «غرر البلاغة» ففي عمله المهم جداً عن قواعد وأنظمة البلاط العباسي يقول ما يأتي:

«من أولئك الذين استخدموا لقب المولى أشخاص كانت لهم مناصب بين الكتاب والموظفين الإداريين وأفراد الحاشية.وقد رأوا في هذا اللقب ترقية لأوضاعهم وسبيلاً لمنزلة أفضل»[51].

لكن ذلك كله لا يعني إنكار حقيقة أن أولئك الذين وصلوا إلى منصب كاتب البلاط أو «المنشئ»، أو مرتبة الكاتب -ولا سيما أولئك الذين جاء ذكرهم هنا ووصلوا إلى أعلى مراتب الكتبة الممكنة، مثل كاتب الديوان أو حتى كاتب السر- يمتلكون المهارات اللازمة والضرورية لتسويغ تعيينهم في هذه المناصب، لكنه يشير بكل تأكيد إلى أن السبيل إلى هذه المناصب كان سهلاً حين يستغل المرء معارفه وصلاته وعبر الاستعانة بوسائل مختلفة للارتقاء بمناصبهم. ولكن، خلافاً لهذا الرأي، لا بد من الاعتراف بأن عدداً من الكتاب قد ارتقوا سلم المناصب من بدايات متواضعة ودون مساعدة من أحد. وكان هؤلاء جديرين بذكر خاص عند القلقشندي[52].

بيد أنه يوجد في هذا كله شيء يثير الفضول. المصادر التاريخية تشير بجلاء دون لَبْس إلى وجود رُشا يقدمها بعض أفراد طبقة الكتاب إبان العصر المملوكي، وقد عرف «الديوان» في عهد الناصر بن قلاوون في العصر المملوكي باسم «ديوان الرُّشا»[53]. وهنالك من زعم أن علاء الدين بن الأثير (القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م) حاول أن يرشو السلطان الناصر بن قلاوون (ت 741هـ/1341م) لينال منصب كاتب السر بينما كان يحاول إقصاء العمري عن منصبه، وهناك مثال آخر يشير إلى أوحد الدين عبد الوهاب المصري (ت 786هـ/ 1385م)، وهو أحد فقهاء المذهب الشافعي، وأصبح كاتب السر في عهد السلطان الظاهر برقوق في العصر المملوكي، وتشير المصادر إلى أنه حين رفض قبول مكافأة «مادية» مقابل «مساعدة» برقوق في الوصول إلى السلطة عينه الأخير كاتب السر عوضاً عن ذلك[54]. لكن ما يثير الاهتمام هنا هو أن مهارات المصري في عمل الكاتب لم يعترف بها أحد لذلك كان ارتقاؤه لمنصب رفيع موضع تساؤل حول نظام التعيينات في تلك المراكز. وتتوالى القصص عن ذلك، ومما يقال إن السلطان برقوق نفسه عيّن فتح الدين ابن نفيس التبريزي (ت 816هـ/ 1414م) وهو طبيب متخصص في

منصب كاتب السر بعد أن عالجه من مرضه[55]، ويبدو أن التبريزي اعتقل في أثناء حكم الوالي الناصر فرج ولم يفرج عنه إلا بعد أن كسب الوالي إلى جانبه بهبات مالية[56].

يعتقد أن الرشوة عرفت قبل العصر المملوكي، فقد ذكر ابن شيث الأيوبي في مقدمة كتابه «معالم الكتابة» أن ثمة صفتين رئيستين يجب أن يتميز بهما الكاتب، هما: التقى والورع والمقدرة على نصح من يخدمه، ثم يتابع الحديث بعد هاتين الصفتين ليعدد مشترطات أخرى أولها وجوب الابتعاد عن الرشوة[57]. وما يجدر ذكره في هذا السياق أن القدرة على الرشوة لم تكن التحدي الذي يواجه الكاتب وحده بل كانت تمتد لتشمل الخازن (وربما غيره) الذي كان مسؤولاً عن حفظ الوثائق المنتهية بأمان، وبالطبع ينبغي له أن يكون موضع الثقة «لأن زمام الديوان بكامله كان بيده». فإن كان عرضة للرشوة فقد يكون تسريب المعلومات سبباً لضرر كبير جداً للدولة[58].

ليس القصد مما تقدم ذكره تشويه سمعة طبقة الكتاب ولا الإقلال من أهميتهم، ولكن ينبغي أن ينظر إليهم ليس في إطار التبعية المتمثلة تحديداً في أدب الرسائل فحسب، بل أيضاً على أنها عموماً تعبير صريح عن الولاء، وقد تحدث موتاهده عن هذه الأفكار بكلام ينم عن عمق الإدراك والمعرفة في عمله الذي خصصه للبحث في الولاء والقيادة في مجتمع إسلامي باكر، وتحديداً في غرب إيران وجنوب العراق إبان القرنين الرابع والخامس هـ/ العاشر والحادي عشر م. يبدو أنه كان للكتبة درجة معينة من الاستقلالية تعويضاً عن ولائهم وإخلاصهم، كما يتضح من فعل متبادل للإخلاص بين الكتاب وصابور بن أردشير الذي كان في مرحلة معينة أعلى موظف مدني مرتبة في بغداد (أواخر القرن الرابع هـ/ العاشر م) في عهد الملك بهاء الدين البويهي، فقد سمح الكتاب لصابور أن يهرب إلى السبخات وينجو بنفسه وذلك مكافأة له على معلومات قدمها كانت سبباً في إنقاذ حياة وزير الملك وأفراد أسرته، وقد وصف ذلك موتاهده بقوله: «وحيث إن الكتبة لا يملكون أن يعصوا الأوامر الملكية بإيذاء كتاب آخرين فقد كانت لهم مصلحة مشتركة في تخفيف العنف ضد فئتهم وغالباً ما كانوا ينجحون في ذلك»[59].

ومع أن العلاقة بين الكاتب والحاكم كانت جزءاً كبير الأهمية في حياة الكاتب، إلا أن اتصالاته مع الآخرين داخل هذه البيئة المهنية قد تركت أيضاً أثراً كبيراً في حياته.

وكانت في هذا الإطار منافسات شديدة ليس فقط بين الكتاب أنفسهم، بل أيضاً بين الكتاب والعسكر[60]، ولا سيما الجنود في أواخر العصر العباسي حين كان الوالي شديد الصلة بهم، ففي هذه الحقبة «لم يفلح الكتاب في جهودهم لاكتساب سيطرة دائمة على ضباط الجيش»[61].

ومثلما كان الكاتب يستعين بوسائل كثيرة لتحسين موقعه كان سهلاً أيضاً سقوطه من ذلك الموقع، يذكر ابن شيث مثالاً لكاتب لم يفعل ما أمره الحاكم حين طلب إليه تبديل تعبير في إنشائه فخسر منصبه[62]، والواقع أن المؤلفات تزخر بقصص عن كتاب لم يكونوا أهلاً لتوقعات رؤسائهم، والمثال على ذلك الوزير أحمد بن عمار الذي لم يستطع أن يفسر معنى كلمة معينة للخليفة المعتصم (القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م) فاستبدله بكاتب آخر هو محمد بن عبد الملك الزيات الذي تصادف وجوده في المكان فأعطى الإجابة الصحيحة[63]، وهنالك مثال آخر يتعلق بواحد من أبرز رؤساء الديوان في مصر ودمشق إبان العصر المملوكي، فقد خدم بهاء الدين بن يحيى الأزدي المهلبي لدى السلطان نجم الدين أيوب (ت 568/ 1173) في مصر لكنه نفي عندما قرر السلطان أنه سريع الغضب والتضليل[64]، فالافتراض الذي يمكن أن نتوصل إليه في هذا الشأن -وذلك بحسب الممارسة في ثقافات أخرى في العصور الوسطى، بالطبع- هو أن الحاكم لا يتسامح مع أي نمط من أنماط السلوك الذي قد يعرض مصداقيته وموقعه للخطر، وفي بعض الحالات قد يكون مصير الكاتب بين يدي حاكم متقلب النزوات، مثلما كان حال المأزق الذي أصاب بدر الدين بن أبي بكر بن مزهر (ت 916هـ/ 1510م)، الذي عمل شقيقه على خلعه من منصبه حين كان كاتب السر، ثم أعيد له اعتباره بعد أن تغير الحاكم ليلقى المصير نفسه على يد الحاكم نفسه إلى أن قضى نحبه بسبب التعذيب[65].

وفي سبيل تأكيد فكرة أن منصب الكاتب كان في معظم الأحيان محفوفاً بالمخاطر يكفي أن تقرأ كتاب «الأفضليات» لابن الصيرفي الذي ألف العديد من أهم الأعمال التي تحدثت عن الديوان في العصر الفاطمي وله مجموعات عدة من الرسائل. يبدأ كتابه المشار إليه بالاعتذار ويطلب الصفح من الحاكم الوزير الأفضل، كانت هذه الأشياء من الأمور المعتادة في العصر قبل الحديث. الشعراء أيضاً نظموا القصائد

في مدح من يرعاهم، كما يتبين من تلك الرسالة المطولة التي كتبها ابن الصيرفي في مدح الأفضل وضمنها بعض أبيات من الشعر قالها أحد الشعراء في مدحه، ولكن أياً تكون أسباب عدم شعور الكاتب بالأمان -مثلاً خوفه من الشائعات المسيئة التي ينشرها الحاسدون- فليس ثمة شك بأنه كان يمضي بعيداً في الحفاظ على الحظوة. وللمزيد من التوضيح نشير إلى ذلك الكتاب الاستثنائي الذي ألفه ابن العبار (ت 688هـ/ 1289م) بعنوان: «إعتاب الكتاب» متضمناً مقاربة تاريخية وقصصية للظروف التي أودت بمختلف الكتاب للسقوط من حظوة أولياء نعمتهم، ففي كتابه هذا يبيّن ابن العبار الذي عانى ما عاناه من فقدانه الحظوة عند ولي نعمته، يحاول أن يتحدث عن رأفة وتعاطف الحكام نحو أخطاء ارتكبها الكتبة[66]. ففي مناسبة معينة في أثناء توليه منصب رئيس الديوان لم ينفذ ابن العبار أمراً يقضي بترك فراغ في وثائق رسمية من أجل علامة توثيق لها، فكان جزاؤه الطرد من الوظيفة والاعتقال داخل منزله ثم ليصفح عنه الحاكم الذي عفا وأعاد له اعتباره، لكن هذا العفو لم يدم طويلاً؛ ذلك أن من جاء بعد الحاكم الذي عفا عنه اعتقله وعذبه ومن ثمّ قتله[67].

ولكن لا بد من القول إن الكتّاب من حيث إنهم طبقة من المهنيين وأصحاب الاختصاص لم تكن لهم شعبية دوماً، ولعل هجوم الجاحظ على طبقة الكتاب وانتقاده لغطرستهم ودعمهم للأعراف والتعاليم الفارسية قد يكون بدافع سياسي، ولكن توجد أمثلة كافية في المؤلفات تؤكد أن الكتبة كانوا في كثير من الأحيان موضع ازدراء الآخرين بسبب تكبرهم وعجرفتهم. والمثال الآتي خير دليل على ذلك نسوقه من السبكي:

> «ومنهم -أي الكتّاب- واحد كان مستغرقاً في الأدب ومعظم كلامه كان سجعاً وذلك إلى أن تصادف وسقط في المرحاض، فجاؤوا له بزوجين من الأصفاد: كلمه أحدهما ليرى إن كان حياً يرزق، فأجابه (إيتني بحبل نحيف وشدني وأنا صحيح نظيف) فقال أحدهما: (والله لن أنقذه لقد غاص حتى حلقه في الغائط) ولا يكف عن الحديث بهذا القول»[69].

وهنالك مثال آخر يدل على غطرسة الكتّاب نجده في مقالة هلال الصابئ التي كتبها في موضوع أنظمة البلاط، ففي حكاية ساقها حول الخليفة المأمون يوجد شيء

من السخرية أو السخرية المرحة تهزأ بسلوك الكتَّاب. تقول الحكاية: «أعطى المأمون الإذن للكتَّاب والقادة بالدخول إليه وجاء فرج معهم، وتحدث الكتاب بطريقتهم المعتادة»[70]. لكن انعدام شعبية الكتاب يمثلها بصدق ابن الأثير الذي، إن صدقت الروايات، يبدو أنه كان منشغلاً كثيراً بالجوانب الأدبية لعمله فنسي وأهمل الجوانب السياسية، ونتيجة لذلك الاهتمام الذي كان في غير موضعه -وفي عصر تاريخي كان فيه «الوقت لا يسمح بأي تجربة أو خطأ»، كما قرأنا- يبدو أنه جلب لنفسه الموت: «كان في طريقته بالقيام بعمله أكثر غباءً من ثور أصم، وذلك إلى أن قام أهالي دمشق عليه وقتلوه»[71].

يصف لنا ابن الأثير في محاولة منه لموازنة تلك الصورة السالبة للكاتب، وفي الوقت نفسه للترويج لموقعه سمعة مشوهة لبعض من هم من طبقة الكتَّاب التي ينتمي إليها دون أن ينسى توجيه لوم للحكومات لتعيين أشخاص جهلة غير متعلمين في مواقع مهمة، حيث يقول:

> «لقد رأيت بعضاً من هؤلاء المتخلفين في هذا الفن [صنعة الكاتب] يركزون انتباههم على كلمات ليس لها معنى وأفكار خلفها ليس لها أهمية. وعندما ينتج الواحد منهم قطعة نثرية تتضمن سجعاً ومهما كانت ضآلتها وتفاهتها فإنه يظن نفسه قد أبدع شيئاً بالغ الأهمية»[72].

ثم يضيف ابن الأثير إلى ذلك قائلاً: «لقد بات عمل الكتَّاب الآن في أيدي أشخاص هم أكثر حاجة إلى التعليم من تلاميذ مدرسة ابتدائية»[73].

ما تناولناه في الفقرات السابقة له صلة من جميع الأوجه بالقسم الثاني من الفصل الثالث ولا سيما أن كلتا الحجتين جزء من فكرة السلطة ولكن بطريقة مختلفة؛ ففي الفصل الثالث ذكرت أن ابن خلف قد أعطى الكتابة موقعاً مميزاً وغير مسبوق في العلاقة بين اللفظ والمعنى، وفي الفقرات الآنفة بينت أن مسألتي خلفية الكاتب الثقافية ووضعيته في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث كانتا على جانب كبير من الأهمية، وواقع الحال أنه كان ثمة الكثير من الأخطار بأن يتخذ الكاتب مختلف الإجراءات ليضمن وصوله إلى منصب رفيع، ويحضرني في هذا السياق ما قاله شارتيير Chartier

في كتابه القيم حول المراسلات في المجتمع الغربي بدءاً من العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر الميلادي، ويبدو أن له صلة بوضعية الكاتب في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث حيث قال: «إن أولئك الذين يستطيعون الهيمنة على الكتابة يرونها دوماً شيئاً قادراً على فرض النظام على الحياة اليومية»[74]. ثم يضيف قائلاً: «إن احتكار الشرعية، التي كانت موضع نزاع ساخن عند من يمتهنون الكلمة المكتوبة... هو علامة على السلطة التي تملكها القدرة على الكتابة في مجتمع لا يزال نصف متعلم؛ لتمنحها إلى أولئك الذين يمارسونها أصالة عن أنفسهم أو نيابة عن الآخرين»[75].

واسمحوا لي أن أتوسع قليلاً في هذا الشأن. لا ينكر أحد أن نظاماً للنخبوية قد وجد في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث[76]. فالمؤلفات الضخمة التي بين أيدينا (وكذلك عناوين لأعمال غير موجودة) حول العلوم والمعارف الإسلامية والإنسانية تقدم لنا دليلاً قاطعاً أن معظم تلك المؤلفات قد وضعها علماء لأجل علماء. وواضح أيضاً أن هذا الحجم الهائل من المؤلفات يدل على سلطة واضعيها على جماعة القراء في أي مرحلة من التاريخ، ومع ذلك، وفي مسألة الكتَّاب يبدو أن ثمة شيئاً من المفارقة في ذلك الموقع غير المستقر الذي وضعوا فيه، وفي سيطرتهم على النوع الأقوى للكتابة -وتحديداً النثر الفني- قروناً عديدة، وفي هذا الصدد أميل للأخذ بالتعبير الذي أطلقه شارتيير حين قال: «الأدب المتخصص» الذي يعدّ أدب الرسائل جزءاً لا يتجزأ منه. يقول شارتيير: إن هدفه «أن ينظم ويتحكم في الأنواع المعتادة للكتابة وأولها عبر الشرح والغرس في أذهان الناس للأساليب الصعبة التي تقتضيها الكتابة، ومن ثمّ وضع القواعد والتقاليد المناسبة لكل نوع أدبي مكتوب»[77]. فقد أدّى الكتَّاب في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث دوراً متكاملاً في هذه العملية. وميدان العمل العلمي البيروقراطي لا يزال يتطلب دراسة كاملة لأوجه الشبه بين مهمة الكاتب في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث والكاتب في أوروبة الغربية «الذي كانت بيئته الإنسانية كذلك تتألف من البلاط وأمور الدولة والدبلوماسية»[78].

يرى شارتيير أيضاً أن فكرة التراتبية الهرمية في كتابة الرسائل لم تكن ظاهرة للعيان فقط، بل أيضاً التراتبيات الهرمية للمعاملات والتقاليد المرتبطة بها التي

«اشتملت على المعايير التقليدية للتبعية والحماية»[79]. وليس مصادفة بالتأكيد أن التركيز الرئيس على كتابة الرسائل «الرسمية» في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث تمثل في العلاقة الاجتماعية بين الكاتب -منشئ الرسالة- والمتلقي، ومع أن العناصر النظرية لأدب الرسائل لا تفسر على وجه الدقة لماذا ثمة تقييدات عديدة على الأسلوب في الرسائل الرسمية[80]، -مثل ضرورة الإيجاز أو الإطناب اعتماداً على الموضوع أو على المرتبة الاجتماعية للمخاطب- فإن أحد الأسباب الرئيسة قد يكون الخوف من الخطأ. أي، كلما كان الأسلوب أكثر تحرراً تزايد احتمال أن يغضب الحاكم، وبحسب شارتيير فإن ما ذكرناه آنفاً برمته يشير إلى أن الكتبة كانوا حقاً جزءاً من «تبعية» دينامية وأنهم كانوا أيضاً يعتمدون في تلك البيئة على حماية الحاكم، ومن الممكن مقارنة ومفارقة هذه الاستنتاجات مع منصب الكاتب في إنكلترا في عصر النهضة والقرن السادس عشر على وجه الخصوص وقد كان أصدق وأهم مثال لها توماس كرومويل Thomas Cromwell*. لقد كان منصب الكاتب آنذاك يمثل «مجالاً للسلطة الفردية والعبقرية» ويعكس على أكمل وجه الموقف في العصر الإسلامي الوسيط، ومع أن الثقة بين الكاتب والحاكم كانت أهم سبب للبقاء في المنصب في كلا هذين المجتمعين[81] إلا أن سلطة الكاتب في المجتمع الإسلامي كانت مقيدة، في حين أنه لم يكن لمنصب الكاتب في إنكلترا في ذلك العصر أي قيود.

الروايات العادية بخصوص وضعية الكتَّاب كتلك التي أوردها سلهايم وسوردل Sellheim and Sourdel في الموسوعة الإسلامية Encyclopedia of Islam تميل لأخذ المصادر بقيمتها الاسمية دون دراسة تداعيات ومضامين ما الذي لم تذكره فعلاً[82]. صحيح أن بعض الكتاب قد وصلوا إلى أعلى المراكز في الديوان ولا سيما في العصر الأيوبي، وتحديداً في العصر المملوكي، لكن التأمل في النشاط الفكري القوي في هذين العصرين يبين لنا أن المدارس الكبرى التي كانت أكثر شبهاً بالجامعات، كانت موطناً

* توماس كرومويل (1485؟ - 1540) سياسي إنكليزي ورجل دولة كان كاتباً للكاردينال وولزي (1514) وبعد سقوط هذا الأخير تولى منصب كبير مستشاري الملك هنري الثامن (1491 - 1547) الذي في عهده انفصلت الكنيسة الإنكليزية عن روما عام 1534 (المترجم).

لأساتذة كبار في كل فرع من فروع المعرفة -الأحاديث النبوية والتفسير واللغة والأدب والتاريخ والفلسفة- ولكن لم يكن هناك منصب رسمي لأستاذ متخصص في عمل الكاتب. وبالطبع يفسر الكتاب ذلك بالادعاء أنه لكي يصبح المرء كاتباً يتعين عليه أن يتقن كل تلك المعارف وغيرها، وهذا ما قاله ابن الأثير حين تحدث عن الشروط الثمانية لفن الإنشاء التي وصفها بأنها تهم فقط أولئك الذين أنعم الله عليهم بالموهبة الفطرية أو «الطبع»[84]، حتى إنه قال وعندما يتقن المرء هذه الصنعة ويكون قد تعلم الشروط الثمانية يستطيع عندها - وعندها فقط - أن يبدأ بدراسة محتوى كتابه[85]. فهو يقول:

> «يجب على الكاتب أن يكون ملماً بكل علم وإلى النقطة التي عندها يقال: كل شخص لديه معرفة بعلم يمكن أن ينسب نفسه له ويقول: (فلان عالم النحو، وفلان الفقيه، وفلان رجل الدين)، لكنه لا يستطيع أن ينسب نفسه للكتابة ويقول: (فلان الكاتب) ذلك أنه بحاجة لأن يغوص في أعماق كل علم»[86].

إن هذا القول حول فرادة الكتبة قول خاطئ في أحد جوانبه، ذلك أنه يفتح الباب لاتهام يوجهه النقاد لطبقة الكتَّاب بأنهم ذوو طبيعة معرفية عمومية ولا يتقنون علماً واحداً بذاته. وإضافة إلى ذلك فإن الطبيعة التكاملية للعلوم الإسلامية والإنسانية كانت تعني أن أي عالم يطمح للفنون يجب أن يتدرب ويصبح عارفاً بكل فروع المعرفة. ولعل قول ابن الأثير المذكور آنفاً قد يكون متأثراً بالفكر الروماني، مثل آراء شيشرون في الخطابة، حيث قال لا أحد يمكن أن يكون كاملاً في جميع نواحي الاستحقاق إن لم يكن قد حصل على المعرفة بجميع الموضوعات والفنون المهمة[87].

إلى جانب ذلك يمكن القول: إن موقع الكاتب بالنسبة للجماعات العلمية الرئيسة الأخرى موقع رائع يدعو للإعجاب. ومع أن موقعه هذا قد يكون مناسباً في فئة التخصص الإنساني الأدبي أكثر منه في فئة التخصص الفلسفي أو الفكري، إلا أن ادعاءات عدد من الكتبة البارزين تشير إلى أن للكاتب موطئ قدم في كل معسكر، إن صح القول[88]. أما حقيقة أنَّ قدراً كبيراً من القصائد الشعرية -التي لا يهتم الكاتب بها بقدر اهتمامه بالنثر- قد استثني من فئة المتخصصين في العلوم الإنسانية الأدبية[89] فهي حقاً تؤيد

الفكرة القائلة إن للكاتب موقعاً واضحاً ومعروفاً بين الجماعات الرئيسة الكبرى من المفكرين العرب والمسلمين في أوسع معانيها.

فالشرط الضروري الذي لا بد منه لعمل الكاتب هو البلاغة والفصاحة، ولا سيما المقدرة على قول الكلام المناسب وفي اللحظة المناسبة وفي الإطار المناسب. وفي هذا يقول ابن الأثير:

> «يجب أن يكون لسان قلمه أكثر فصاحة من سحبان[90] وأوضح من الشمس للعين... وحين يُسأل [الكاتب] سؤالاً يجيب، وعندما يسأل سؤالاً يكون مقبولاً، وحين يتكلم يصيب عين الحقيقة... [ويجب أن يكون] عارفاً بقواعد الكتابة ويعرف جيداً السبيل للوصول إلى هدفه[91]».

وهنا نجد المقدسي يحدد نقطة الوصل المهمة بين الفيلسوف السكولاستي* المتمسك بالأساليب التقليدية والفيلسوف الإنساني الذي يؤكد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل (وهنا أود أن أشير إلى أن العلماء من أمثال ابن الأثير كانوا من كلا هذين الصنفين للفلاسفة) حين يقول إن السكولاستي معروف بخبرته في «المنطق الجدلي والمناظرة» بينما يعرف الفيلسوف الإنساني بخبرته في «البلاغة والارتجال»[92]. وفي هذا السياق يقول كارتر Carter في معرض تقويمه الوجيز للغة من حيث كونها وسيلة للتفاعلية الاجتماعية في إطار الأدب: «وهي [أي اللغة] جزء من المظهر الخارجي للمرء، فالشكل والمضمون يتعلمهما بالطريقة التي بها يتعلم الملبس والسلوك الملائمين للبلاط»[93].

وإنني لا أرى ضرورة للدخول في تفاصيل الشروط الثمانية للمعرفة التي وضعها مبدئياً ابن الأثير من أجل الكاتب ولا سيّما أنها قد ذكرت وجرى الحديث عنها على درجات متفاوتة في مواضع أخرى[94]. ولكن الشروط هذه هي باختصار: (1) قواعد اللغة (2) المفردات وأصولها (3) الأمثال والمعارك (4) مؤلفات القدامى وما كتبوه وحفظه

* السكولاستية هي فلسفة سادت في العصور الوسطى وأوائل عصر النهضة وقد بنيت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة، لكنها اتسمت في أوروبة الغربية خاصة بإخضاع الفلسفة للاهوت، من أبرز رجالها توما الإكويني الذي حاول أن يقيم صلة عقلانية بين العقل والدين (المترجم).

عن ظهر قلب[95]، (5) الإدارة العامة (6) حفظ القرآن وتعلم كيفية الاستعانة بآياته وكيفية الاستشهاد بها في الخطاب[96]، (7) حفظ عدد كبير من الأحاديث المروية عن النبي محمد [صلى الله عليه وسلم][97]، (8) علم العروض والقوافي (في الشعر). ومع أن الحلبي لم يضف شيئاً إلى هذه الشروط الثمانية في كتابه «حسن التوسل»، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أنه قد وضع حفظ كلمة الله في المقام الأول من هذه الشروط، مضيفاً إليها تلاوة هذه الكلمة وتدبّرها على الدوام والتأمل في معانيها «لكي تبقى صورة راسخة في الذهن، تدور على لسانه ويتمثلها قلبه يذكرها دوماً في كل ما يعرض له من أحداث فيستشهد بها»[98]. وكما هو شأن الكثير من فروع المعرفة في ذلك العصر -وقواعد اللغة واحد منها- فإن استيعاب النص وحفظه وتذكره يضمن - ليس فقط حفظ - كلمة الله ولكنها تظل حية في أي عصر من العصور، بل يضمن أيضاً نقل العمل اللفظي عينه الذي به أوحى الله هذا الكتاب المقدس إلى النبي محمد بواسطة الملك جبريل، والوصف الذي قدمه الحلبي خير مثال لهذه العملية التي بها يوجد دوماً إمكانية التطبيق الدينامي للكتاب، وتعليماته هذه تشبه إلى حد بعيد جداً تعاليم عبد الحميد الكاتب من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) الذي كان يؤمن أن «تكرار تلاوة القرآن تجعل المرء ينتقل من حال الإعجاب السلبي بصنعته، إلى التقليد الإيجابي النشط له»[99].

يتضح من قائمة الموضوعات التي وضعها القلقشندي، التي ينبغي للكاتب أن يعرفها جيداً أنه قد ذهب إلى ما هو أبعد مما قاله الحلبي وابن الأثير. فهو يشير إلى أن العلم بالموضوعات الآتية جميعاً ضروري ليتمكن الكاتب من التحدث عنها، إما من حيث هي الفكرة الرئيسة للرسالة أو فكرة أقحمت في رسالة حول موضوع مختلف، وهو: الأبطال والرجال البواسل، والقيان والعبيد، الخيل والجمال، جميع أنواع الطيور والمخلوقات ذوات الأجنحة، الأسلحة وصنوفها، الأنواع العديدة للأدوات بما فيها أدوات الصيد والأسفار، المدن والحصون والمساجد وما في الطبيعة من أشجار وأزهار، والجغرافيا مثل الوديان والبحار والجبال، والأشياء السماوية كالنجوم والسماء والسحب والرياح والأمطار والعوامل والقوى الجوية[100]. في مطلع المجلد الثاني من كتابه صبح الأعشى

يصف القلقشندي بعض هذه الموضوعات وصفاً مفصلاً، ونحن نتعلم الكثير عن الصفات المميزة للرجل والمرأة، على سبيل المثال، ونتعلم كيف نفرق بين نوع من الخيول وآخر، والواقع أن كثيراً من الألفاظ المتعلقة بهذه الأنواع قد صنفت على أنها كلمات «غريبة». ويمكن إيجاد مثل هذه الكلمات في الأعمال المعجمية، التي ألف العديد منها في صدر الإسلام، وهي جميعاً تتحدث عن الكلمات الغريبة وغير المعروفة على نطاق واسع في اللغة العربية، ويخبرنا القلقشندي أيضاً أن الشرط الأول في تعرف الكاتب الغريبَ من الألفاظ، وهذا أمر له صلة قوية بفكرة أن الغريب هنا يعني الجميل وأنه يدل على فكر مبدع مثلما أن له صلة بالإدراك الحسي الذي يرى في «الغريب» مساوياً للقبيح. ولتأكيد أهمية هذا الشرط يرى القلقشندي أن الشرط الثالث يتمثل في تعلم اللغة «الصافية النقية» [أي الفصحى] وليس لهجة العامة من الناس[101].

غير أن لفظة [الغريب] في هذا السياق لا تحمل دوماً معنى الجميل، وبداية نقول: كان ثمة اتفاق عام بين علماء اللغة أن أنواعاً معينة لألفاظ «غريبة» تعد «غير فصيحة». وهذه الألفاظ ليس لها استعمال جار في اللغة، إضافة إلى أنها لا تحمل معاني واضحة، أما بخصوص تلك الألفاظ الغريبة التي كانت متداولة فيبدو أنه يوجد شيء من الخلاف بين العلماء حول مدى قبولها، فابن الأثير – على سبيل المثال – قلل من أهمية الألفاظ الغريبة مستشهداً بقوله: إن القرآن الكريم هو «أفصح الكلام» وإن عدد الألفاظ الغريبة فيه ضئيل جداً. ومع ذلك، يتضح من كلام ابن الأثير في موضع آخر أن هذا الصنف من الألفاظ هو الذي أفرد للقرآن طبيعته الخاصة –التي كانت في رأيه قريبة من فهم المتعلمين المثقفين من الناس والعامة أيضاً– البعيدة عن مجموعة الألفاظ الغريبة التي هي قريبة من فهم الخاصة من الناس[102]، وفي هذا الإطار لا يمكن النظر إلى الغريب من الألفاظ التي كتبت عنها مقالات ودراسات عديدة إلا من منطلق أنها شيء إيجابي، وبرغم أن القلقشندي يبدو أكثر تقبلاً للغريب من الألفاظ فإنه لم يتحدث عن ذلك إلا في معرض الحديث عن القرآن والحديث الشريف والشعر، لكنه أشار إلى أن بين هذه المصادر الثلاثة يوجد قدر كبير من الألفاظ الغريبة لكن معظمها ورد في الشعر[103]، إلا أن القلقشندي لم يذكر أن أول إشارة لابن الأثير إلى

هذا الموضوع، كانت حين عدد الشروط الثمانية قال: إن الألفاظ الغريبة التي ينبغي الابتعاد عنها هي الألفاظ «غير الفصيحة»[104].

أما في إطار تصنيفات الفصاحة والبلاغة وفق المعنى الغربي التقليدي فينبغي توخي الحذر عند إجراء مقارنات بين مبادئ البلاغة في الثقافات الغربية ومبادئ نظرية البلاغة في المجتمع العربي الإسلامي، ومع ذلك لا يمكن إغفال أوجه الشبه بين الثقافتين ولا سيما حين يتعلق الأمر بأثر قطعة خطابية على المستمعين ومقاصد الخطيب. في دراسته عن «البلاغة والعالم الجديد» يدرس الباحث فيتز موريس Fitz Maurice أثر ألفاظ التعجب والدَّهَش على المستمعين، فهو يقول: «والخطيب لا يحتكم إلى ما هو مألوف فقط، بل يتحدث أيضاً عما هو غريب... ففي نظرية البلاغة... يؤدي الدهش والتعجب دوراً مستمداً من سيكولوجية المستمعين». ثم يستشهد بما قاله إرازموس Erasmus: «كلما كانت الأشياء غريبة غير مألوفة ازداد السرور الذي يبعثه الوصف في النفس وطالت مدة التأمل فيه»[105]. ويواصل فيتزموريس حديثه ليطنب في الكلام عما هو أصلاً مبدأ تحدث عنه أرسطو بقوله: «إن الخروج [عن الاستخدام السائد] يجعل اللغة تبدو أكثر سمواً؛ ذلك أن الناس لديهم إحساس بخصوص اللفظ شبيه بإحساسهم بالغرباء وتميزهم عن أبناء المدينة. ومن ثمّ ينبغي على المرء أن يجعل لغته غريبة غير مألوفة لأن الناس تعجبهم الأشياء البعيدة الغريبة..»[106]. وأنا أرى أن الألفاظ العربية في أدب الرسائل يجب أن ينظر إليها في هذا الإطار، ولا سيما أن واحداً من التحديات العديدة الماثلة أمام الكاتب يكمن في قدرته على الوصول إلى القراء بين وقت وآخر بألفاظ غريبة دون أن يجعلها مستغربة؛ إذن، تلخيصاً لهذه الفكرة يمكن القول سواءً كانت الكلمة أو التعبير في نصوص الرسائل في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث ألفاظاً غريبة جميلة أو غريبة قبيحة فإن الكاتب يجب أن يلم بها ويعرفها بحيث يستعمل أفضلها أو يرفض أسوأها. ولهذا السبب أولى الباحثون أهمية كبرى لهذا الجانب من أدب الرسائل.

من المعروف أن القلقشندي قد توسع في الشروط الثمانية وجعلها خمسة عشر شرطاً لكن عمله هذا كان استطراداً أكثر منه عملاً مبتكراً[107]. وعلى أي حال يجدر

بنا أن نذكرها وفق الترتيب الذي وضعه لها. فالشرط الأول هو معرفة جيدة باللغة العربية، والثاني معرفة اللغات الأجنبية مثل التركية والفارسية والبيزنطية والفرنكية [هكذا] والبربرية والسودانية، والواقع أنه يوجد مثال واحد في الحد الأدنى في أدب التراجم يوضح أهمية تعلم اللغة الأجنبية، فقد ورد أن بدر الدين محمود الكالستاني (ت 801هـ/ 1399م) قد عين رئيساً للديوان، وفيما بعد كاتب السر؛ لأنه كان الشخص الوحيد الذي استطاع أن يقرأ كتاباً باللغة التركية للوالي بعد أن ذهب إلى حلب[108]. ثم كان العلم بقواعد اللغة شرطاً آخر من هذه الشروط، بالإضافة إلى إتقان علم الصرف والعلوم البلاغية الثلاثة، وقد تضمنت القائمة ما يأتي: حفظ القرآن وحفظ أكبر عدد ممكن من الأحاديث النبوية وحفظ عدد كبير من الخطب وتطوير المهارة والخبرة في أساليب الخطباء، وحفظ عدد كبير من الرسائل التي ترجع في تاريخها إلى عصر صدر الإسلام، وحفظ أفضل ما قيل شعراً وحفظ عدد كبير من الأمثال، ومعرفة أنساب العرب والعجم ومعرفة أدب «الفخر» و«المناظرة»[109]، وكذلك تعرّف أدب المعارك ومعرفة الأنشطة غير العادية [من عصر الجاهلية، قبل الإسلام] ومعرفة العادات والتقاليد العربية.

ولكن لا ينبغي أن يؤخذ موضوع قواعد اللغة ووضعه واحداً من الشروط عند ابن الأثير والقلقشندي على أنه أمر مسلم به، فالقواعد – والنحو بوجه خاص – هي الأساس الحقيقي لدقة واكتمال فصاحة التواصل، برغم أنها لم تعط أهميتها اللازمة في كونها فرعاً من فروع المعرفة؛ فمثلاً يستطيع الكاتب أن يعطي أبلغ الكلام ومع ذلك قد يتهم باللحن، واللحن يعني الاستخدام الخاطئ غير الصحيح لقواعد اللغة وليس الاختيار الخاطئ للكلمة، وكما قال القلقشندي: وعندما يحدث ذلك «فإن كل ما جعله جميلاً يصبح لا شيء»[110]، وهناك جانب آخر له أهميته، وقد أبرزه القلقشندي ألا وهو صلته بالاستخدام المتزايد لعبارات التبجيل والاحترام وطولها في نصوص الرسائل المتأخرة؛ لذلك يجب على الكاتب أن يتقن جيداً قواعد الإعراب، وذلك ليسجل النسب الصحيح في عبارات التبجيل تلك[111]، ومع ذلك لا يمكن التشكيك في موقف ابن الأثير بخصوص

سمو البلاغة وارتفاع منزلتها فوق علم النحو ولا سيما حين يقلل من أهمية دور النحو في الوصول إلى أعماق سمو البلاغة[112].

هذا وقد أضاف ابن الصيرفي إسهامه المهم إلى قائمة الشروط المذكورة، ففي إطار الحديث عن شرط معرفة ما روي عن النبي وآله أكد ضرورة أن يكون الكاتب راوياً وليس مجرد حافظ لما يروى عن الملوك، ولا سيما ملوك العصور القديمة وملوك الحضارات الأخرى[113]. فهذه المعلومات كانت تستخدم بالتأكيد لتزيين الرسائل وفي المناسبات العامة لتذكير الملوك والحكام بالأمجاد الغابرة ولتشجيعهم على القيام بمحاكاة أعمال ومنجزات السلف.

وهنا يجدر بنا التوقف قليلاً لنتحدث عن تلك الإضافة التي أضافها القلقشندي لقائمة الشروط بخصوص تعلم اللغات الأجنبية؛ ذلك أن هذا الشرط يبين توسع الواجبات الدبلوماسية المطلوبة من الكاتب في ذلك العصر على الأقل، فإتقان لسان الأجانب كان ضرورياً ليس فقط للأسفار، بما في ذلك سفر الجواسيس للعمل في المجتمعات الأجنبية، بل أيضاً لترجمة الوثائق الرسمية الواردة إلى السلطان، كما أنه كان ضرورياً أيضاً من أجل التواصل اليومي بمختلف اللغات مثل التركية في مصر، حيث غدت اللغة السائدة والفارسية في العراق والمناطق المجاورة، حيث كانت وسيلة التواصل السائدة، أو لغة البربر في بلدان المغرب. لذلك ليس مستغرباً أن نجد تأكيد هذا الشرط في المؤلفات المتأخرة، وذلك بسبب الضرورة المتزايدة لتعلم اللغة التركية في عهد المماليك، ولكن يبدو أن ثمة دفاعاً سياسياً لذلك كما يظهر من حجم السلطة التي كانت بيد المماليك. ومع أنه كان من المفترض أن يتعلم المماليك اللغة العربية -ولا سيما أن بعضهم انخرطوا للأعماق في نشر العناصر الأساسية للدين الإسلامي- إلا أنه كان ثمة فائدة كبرى يمكن أن يجنيها المثقفون ومنهم الكتبة من جرّاء تعلم لغة المماليك. وحيث إن المماليك كانوا «المسيطرين على المصادر الرئيسة للثروة والإيرادات»، كما قال بيركي Berkey، فمن المفيد للنخبة المثقفة أن تعيش بتناغم وانسجام معهم، ونحن بذلك ننظر إلى هذه المسألة من زاوية تختلف عن الزاوية التي منها نظر بيركي، لكن النتيجة واحدة، فكل جماعة اجتماعية تحتاج إلى لأخرى، ولم تكن الأسباب المالية

وحدها التي تدفع الطبقات المثقفة للاندماج مع المماليك على قدر المستطاع، بل كان ثمة أيضاً فوائد دينية هائلة، وهذا ما لحظته الباحثة كرون Crone في قول ابن خلدون إن مؤسسة المماليك «كانت نعمة من الله لإنقاذ الإسلام». ثم تضيف إلى ذلك قولها: إن هذه المؤسسة جعلت القبائل التركية «تعتنق الإسلام مع تصميم على أن يكون أفرادها مؤمنين صادقي الإيمان»[116]. ويمكن مشاهدة إحدى نتائج الطريقة التي بها اعتنق المماليك الإسلام في نظام عبارات التبجيل التي تطورت في أدب الرسائل وعلى وجه الخصوص في العصر المملوكي. وقد ذكر القلقشندي أنه كلما كثر عدد الأوصاف المذكورة في الرسائل الموجهة إلى الحاكم ازدادت النتيجة بلاغة وفصاحة[117]. ومع ذلك، فإن عدد العبارات التبجيلية التي يخاطب بها الحاكم قد تبدو زائدة عن الحد المعقول -وربما تكون مبتذلة- إلا أنه على الرغم من ذلك يمكن التشكيك في أثرها الإيجابي والملائم في إدخال السرور إلى قلب الحاكم، لكن ما يدعو للسخرية أن هذا الاستنتاج يجب أن يقابله حقيقة تؤكد أن بعض الحكام لم يكونوا يعرفون العربية جيداً ليقدروا فحوى هذه العبارات ومضمونها[118].

يلاحظ من تلك القائمة التي وضعها القلقشندي للغات أنه لم يذكر أي لغة لأقوام غير مسلمين، ويبدو أنه كان في العالم الإسلامي في الماضي البعيد شيء من النفور من تعلم لغات أقوام غير مسلمين، ويبدو أن هذه النزعة قد استمرت حتى العصر العثماني إن صحت أقوال لويس Lewis. فهو يقول: إن العالم الإسلامي «رفض» تعلم لغات غير إسلامية، ويقول: إن الأوروبيين هم الذين تعلموا لغات أجنبية للأغراض الدبلوماسية[119]. لذلك لعل المقصود من هذا الشرط بأن يتعلم الكاتب لغات أجنبية هو ألا يخضع لقيود عملية كثيرة بل أيضاً المبالغة في ذلك واستناداً إلى مثل وهمية في خيال الكاتب أكثر من استنادها إلى الواقع، هذا وقد أدّى المترجمون دوراً مهماً إبان العصر العثماني، وبحسب ما ذكر لويس Lewis فهم «إما أنهم مرتدون، أي من المسيحيين في الغرب جاؤوا واستقروا في بلد إسلامي واعتنقوا الإسلام، أو أنهم ذميون أي رعايا في الدولة غير مسلمين ويعيشون في بلد إسلامي»[120]. لذلك ليس مستغرباً

أن نجد أن القسم الأعظم من عمل الترجمة في بداية ذلك العصر قام به المماليك أنفسهم أو أولئك الذين هم بوضعية مشابهة، كما وصف ذلك لويس الذي يمضي قائلاً: «لا نعرف الكثير عن المترجمين الذين عملوا لدى سلاطين المماليك في مصر وغيرهم من الحكام المسلمين في العصور الوسطى، مع أنه توجد دلائل تشير إلى أنهم كانوا في معظمهم من المرتدين القادمين من أوروبة»[121]. وإن صح ما يقوله لويس، هل نبالغ في الافتراض بأن دعوة الكتبة لتعلم لغات أجنبية كانت في واقع الحال غير حقيقية وأنها مستوحاة من الطلب المتزايد على الدبلوماسية في بلاد بعيدة، ووسط تنوع واسع من الناس والثقافات؟ ولو أن مهنة الترجمة كان يهيمن عليها العنصر غير المسلم فهل كان الكتبة بحاجة إلى أن يتعلموا اللغات الأجنبية؟

وكما أشرنا آنفاً وضع ابن الأثير قائمة المشترطات الثمانية قبل أن يضع القلقشندي لائحته المتضمنة خمسة عشر شرطاً، والإدارة التي جاء ترتيبها الخامس في قائمة ابن الأثير بحاجة إلى المزيد من التفصيل في هذه العجالة؛ ذلك أنها تختزل جوهر العلاقة بين كتابة الرسائل وشؤون الدولة التي منها تستمد الأولى أهميتها، يوضح ابن الأثير بجلاء بعيد كل البعد عن اللَّبْس أن الكاتب برغم وجوب تعلّمه وإتقانه لقواعد الحكم، بما في ذلك أصول تعيين الملوك والأمراء، على سبيل المثال -ووجوب أن تكون لديه معرفة كافية بكيفية التعامل مع الظروف غير المتوقعة لتغيرات في الحكم؛ لكي يتمكن من كتابة رسالة ذات معنى مفيد- إلا أن الأمر في حد ذاته يذهب إلى ما هو أبعد من مجرد توصيف لقانونية المسألة التي يمكن مراعاتها بمجرد «إرسال كتيب يتضمن القوانين بدلاً من إرسال الرسالة» وعلى القدر نفسه من أهمية الموضوع الذي بين أيدينا توجد أهمية لمسألة كيفية إنشاء الرسالة، فالكاتب يجب أن يضمن إنشاءه «دعوة وتخويفاً، تسامحاً في موضع ولوماً في موضع آخر، وجعل هذا الإنشاء مليئاً بالإشارات الدينية التي يعرضها الكاتب في قالب من الخطاب البليغ»[122]. وهذا يعني بعبارة أخرى أنه يجب أن تنشأ الرسالة طبقاً للأهداف التواصلية المحددة، وهذا الإنشاء واحد من أكبر مسؤوليات الكاتب.

من الأشياء التي أغفلتها قائمة ابن الأثير للشروط المطلوبة في الكاتب شرط معرفة العلوم البلاغية الثلاثة، وهي البيان والمعاني والبديع. يقول بعض أبرز أصحاب النظريات الأدبية مثل العسكري وابن الأثير والحلبي: إن تعلم هذه العلوم أمر ينفرد به فن الكتابة، لكن القلقشندي يقدم لنا رأياً أكثر توازناً حين يقول: إنها جميعاً «أداة لكل كلام اقتضى البلاغة»[123]. ويتضح أيضاً من بعض الآراء التي قدمها الحلبي مثلاً أن كل واحد من تلك الشروط المذكورة له أهميته التي تعادل أهمية سواه، وفيما يتعلق بموضوع المعارك أو أيام العرب كما كانت تذكر في المصادر على سبيل المثال، يقول:

> «وإذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفاً بكل يوم من هذه الأيام، عالماً بما جرى فيها، لم يدر كيف يجيب عما يرد عليه من مثلها ولا ما يقول إذا سئل عنها... وحسبه ذلك نقصاً في صناعته وقصوراً عما يتعين عليه من معرفته وحسن الإجابة عنه عند السؤال عنه»[124].

سبق أن بيّنت في الفصل الثالث مدى الاحترام الذي تتمتع به الكتابة وأدواتها، لكن القلم لا يستطيع تحقيق إمكاناته دون عون من الكاتب (والعكس صحيح، طبعاً)؛ لذلك ليس مستغرباً أن نجد القلقشندي يعقد مقارنة بين ما قاله عن مزايا الكتابة بالنسبة للصنعات الأخرى ومزايا الكاتب بالنسبة للأشخاص الآخرين، وبالطريقة نفسها التي بها أثنى على مزايا القلم يقدم لنا قائمة مطولة من الشواهد التي تمجد مزايا الكاتب استمدها من ثقافات مختلفة على مر التاريخ، كما ضمَّن قائمته تلك مقتطفات مما قاله الحكام لكي يسبغ على هذه القائمة شيئاً من علو المنزلة، فقد قال ابن المقفع، وهو واحد من أفضل من كتب النثر في صدر الإسلام ومن أشهر من قدموا إسهاماتهم لمرآة أدب الأمراء، عبارة بالغة الأهمية حين أكد أن الملوك يحتاجون الكتبة أكثر مما يحتاج الكتبة إلى الملوك، ومع ذلك، وبرغم هذا القول نجد ابن خلف الذي استعان بجميع الوسائل للترويج لكل ما له صلة بالكاتب -قلمه، أو صنعة الكتابة، أو وضعية الكاتب نفسه- والارتقاء بها فوق جميع المراتب وجد نفسه مضطراً للاعتراف بحدود التقدير الممنوح للكاتب، حيث يقول:

«ومن المعلوم أنه لا بد من واسطة تقوم بين الملك والرعية لبعد ما بين الطبقتين، العليا والدنيا، وليس من طبقات الناس من يساهم الملوك في جلالة القدر وعظيم الخطر، ويشارك العامة في التواضع والاقتصاد سوى الكتَّاب فاحتيج إليهم للسفارة في مصالح الرعية عند السلاطين واستيفاء حقوق السلاطين من الرعية والتلطف في الصلة بينهما»[125].

في هذا الرأي الأخير لابن خلف توجد درجة عالية من والدعابة؛ ذلك أن الكاتب لا يبدو أنه نال قسطاً من التعويض عن عمله كما كان يجب، وكما ذكرت في موضع سابق، وإضافة إلى ذلك، فإن المحاولات التي بذلها القلقشندي وبعض أوائل الكتبة لإخفاء أهمية الكاتب المالي مقابل أهمية كاتب الرسائل لم تكن مقنعة قط. فمثلاً تبرز أمامنا مقامات الحريري عن عمل الكاتب دليلاً لا يداخله شك حول أهمية كاتب المالية الذي ينظر إلى عمله على أنه «أكثر فائدة». ولهدف إبراز فوائد كاتب المالية يذهب الحريري بعيداً ليقول: إن فن أو صنعة المال تقوم على «التحقق الصائب»، في حين تقوم صنعة الإنشاء على «تلفيق مضلل»[126]. والجدير ذكره أن أنشطة الكتبة في القرون الأولى القليلة عقب ظهور الإسلام كانت تتركز على الأمور المالية مثلما ركزت على المراسلات[127]. لذلك كان متوقعاً أن نجد محاولات يبذلها القلقشندي للاعتراف بالمزايا النسبية لكل وجه من وجوه عمل الكاتب، ثم ليؤكد أهمية الرسائل وتفوقها على المال، فهو يقول: إن عمل الكاتب المتعلق بالرسائل يقتضي معرفة بجميع أشكال عمل الكاتب ولا سيما أن عمل الأول يلامس بقوة جميع الأنواع الأخرى، وهذا يتضمن بالطبع عمل كاتب المالية، ويكفي القلقشندي أن علماء الأدب المنصفين أعطوا الأهمية لعمل الكاتب ذي الصلة بالرسائل وجعلوه فوق جميع الأشكال الأخرى، ثم يؤيد أقواله تلك بالحديث عن الأسباب اللغوية لهذا التميز مثل استناده إلى [فن] البلاغة الذي «يبين دقائق المعاني التي هي جوهر الأفكار والألفاظ»، وأيضاً عبر تأكيد تلك العلاقة الوثيقة بين الكاتب والحاكم الذي يعتمد على الكاتب في الأمور المهمة، ثم يزعم أيضاً أن كاتب الإنشاء هو الأكثر جدارة بالبعد عن اللوم من كل الآخرين من أهل القلم عند التعاطي

مع الأمور المالية، ويبدو أن هذا القول إشارة إلى الاتهامات الموجهة إلى هؤلاء بخصوص الفساد المالي ولا سيما في مجال فرض الضرائب[128].

يبدو أن فهمنا للإنتاج الفكري والواجبات المكتبية الملقاة على الكاتب في العصر الإسلامي قبل العصر الحديث ينحصر في أنشطة عدد ضئيل من الأفراد المهمين، والأسماء نفسها تتردد في المؤلفات الثانوية بمنزلة أمثلة لكتاب ذوي مرتبة عليا وضعوا بصماتهم في كونهم رؤساء للديوان - مثلاً - وشخصيات أدبية، وفي هذا الإطار نجد كتاب صبح الأعشى للقلقشندي مصدراً غنياً بالمعلومات حول الواجبات الرئيسة التي ينهض بها الكتَّاب مهما كانت مرتبتهم، وكذلك في مجال توصيفه المفصل للصفات الشخصية والمهنية الضرورية لأداء المرء في خدمة الكتابة والارتقاء بها إلى أعلى مرتبة، ومع ذلك فهو مصدر يفتقر إلى معلومات حول السير الذاتية.

وحقيقة الأمر أن المصادر الأولية والثانوية تفتقر عموماً لمجموعة متجانسة لأدب السيرة تتضمن تفاصيل بالغة الأهمية عن أكثر الكتاب أهمية في ذلك العصر، غير أن التراث الأدبي العربي والإسلامي قد ينفرد عن جميع الآداب الأخرى في احتوائه على مجموعة وافرة من مصادر السير، التي تغطي كل فرع من فروع المعرفة يمكن تصوره وعلى وجه الخصوص العلوم الإسلامية، وأيضاً العلوم اللغوية مثل النحو والصرف فهذه المصادر تكوّن ذخيرة لا تقدر بثمن من المعلومات عن حياة العلماء الفكرية في تلك العلوم والمعارف فتسلط الأضواء بوجه خاص على الأماكن التي فيها تعلموا وعلى يد من تعلموا صنعتهم وتفاصيل أعمالهم الفكرية الرئيسة، وغني عن القول إن مفهوم التتلمذ لأُستاذ كان عاملاً له أهميته الخاصة في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث لا سيما أن مصداقية العالم قد تتوطد أو قد تهدم اعتماداً على خلفيته الفكرية وتدربه. لكن هذه المصادر لا تعير اهتماماً للحياة الشخصية لمن تتحدث عنهم اللهم فيما عدا الإشارة إلى عدد أبناء العالم، وهذا انعكاس في حد ذاته ليس فقط للمجتمع الأبوي أساساً، بل أيضاً لحقيقة أن الأبناء الذكور يتابعون العمل بمهنة آبائهم. وعموماً عندما يرغب المرء في الحصول على معلومات عن كتَّاب ذلك العصر فينبغي له أن يبحث

عنها في كتب السيرة الأكثر عمومية، بالرغم من وجود بعض الاستثناءات، وسوف أناقش الآن واحداً من هذه الأعمال.

لقد حاولت في هذا الفصل والفصل الذي سبقه أن أبينّ كيف كان ينظر المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث إلى مهنة الكاتب وكيف كان الكتَّاب أنفسهم يحاولون الارتقاء بهذا العلم ليضمنوا لهذا العلم مكاناً لائقاً بين العلوم والمعارف الأخرى الإسلامية والإنسانية، ولا شك أن أهمية كل علم من تلك العلوم الأخرى قد تعززت بسبب توافر أعمال مفصلة عن سير العلماء (مثل النحو والقانون والمعاجم) تعدّ دليلاً واضحاً لحجم النشاط في كل حقل. لكن عدم وجود معلومات مفصلة عن حياة الكتَّاب يؤكد أهمية العمل الذي قام به محقق كتاب البرد الموشى للموصلي، ولا بد لي في هذا المقام من أن أشير إلى أن معلومات السيرة التي تضمنها عمل الموصلي لا تغطي إلا العصرين الأيوبي والمملوكي. وحسب معلوماتي لا يوجد سجل تفصيلي عن حياة وأنشطة الكتَّاب قبل هذين العصرين برغم أن بعض المعلومات قد توجد في عدد قليل من الأعمال الكبرى التي تتضمن قدراً محدوداً من معلومات السيرة المهمة لبعض الكتبة لكنها لا تقتصر حصراً على طبقة الكتبة[129]. والحق يقال إن كثيراً من الوقائع المهمة والمكاسد تظهر جلية في المعلومات الخاصة بسير الكتاب في عمل الموصلي، وهذا ما يجعله مصدراً ضرورياً بخصوص التطورات والأحداث البيروقراطية المهمة في العصر الإسلامي الوسيط.

واللافت أيضاً أن الأحداث التي كان لها - فعلاً - أثر كبير في مجرى التاريخ قد سجلت بأسلوب واقعي جداً؛ لذلك نجد أمثلة عديدة عن الفساد والرشوة المستشرية في البلاط بين أشخاص ذوي نفوذ تروى وكأنها أحداث معتادة، وقد قدمنا في هذا الفصل بعض هذه المعلومات وفيما يأتي بعض الأمثلة الأخرى، ولكن لنتحدث أولاً بمزيد من التفصيل عما قدمه محقق كتاب الموصلي في تصنيف أدب السيرة[130].

لا بد من القول بداية إن ترتيب المعلومات الخاصة بالسيرة في كتاب (البُرد الموشَّى)، ولا سيما حول الكتاب الأكثر نفوذاً في تلك الحقبة سهل لا يسبب الارتباك،

فقد استحدث المحقق أربع فئات للكُتَّاب في العصرين الأيوبي والمملوكي، وهي كما يأتي: أشهر كُتَّاب الإنشاء وكُتَّاب السر في سورية ومصر، أشهر كُتَّاب الإنشاء في مصر، أشهر كتَّاب السر في سورية وأشهر كتَّاب الإنشاء في سورية. ليس واضحاً للوهلة الأولى ما وجه الاختلاف بين الفئة الأولى والفئات الثلاث الأخرى، ومع ذلك لا يوجد أي تكرار للمعلومات؛ لذلك، فإني أفترض أن الفئة الأولى تتضمن معلومات حول الذين شغلوا المنصبين معاً، لكن هذا الافتراض لا يفسر لماذا لم يفرد الموصلي تصنيفاً مستقلاً لكتَّاب السر في مصر مثلما فعل بخصوص سورية، إلا إذا كانت الفئة الأولى تتضمن فقط الكتَّاب الذين شغلوا المنصبين معاً، ومهما كانت الأسباب فإن ما هو واضح لأول نظرة من هذا التصنيف أنه كان ثمة عدد كبير من الكتَّاب ذوي النفوذ على مدى زمن امتد بضع مئات من السنين هي الحقبة التي غطاها كتاب (البُرد الموشَّى). تضمنت الفئة الأولى 38 كاتباً وفي الفئة الثانية يوجد 115، وفي الثالثة يوجد 64 بينما تضمنت الفئة الرابعة 112 كاتباً. ويبدو أن هذه المعلومات قد رتبت وفق ترتيب زمني وليس بحسب أهمية وأعمال الكاتب نفسه، وسوف أتحدث في الفقرات القادمة عن بعض من هم من ذوي المكانة المرموقة وبعض الأحداث والوقائع ذات الصلة بحياة كل منهم في ذلك العصر.

أول كاتب ورد اسمه في «سجل الشرف» هو القاضي الفاضل، وهو كاتب واسع الشهرة والنفوذ وكان وزيراً لدى صلاح الدين الأيوبي، أسلوبه النثري – وتحديداً في أدب الرسائل – كان على ما يبدو واسع التأثير حتى إنه سمي بـ: «الطريقة الفاضلية». يقال إن مجموعات الرسائل التي كتبها بلغت أكثر من مئة مجلد موزعة على المكتبات في العالم[131]. والكاتب الثاني الذي ورد اسمه في هذه الفئة الأولى هو عبد المحسن التنوخي (ت 643هـ/ 1246م) وهو ثالث كاتب يشغل منصب رئيس الديوان في مصر. وأصبح أيضاً وزيراً عند عز الدين أيبك، وما هو مهم عن التنوخي أنه كان إلى جانب ذلك أديباً مكثراً، ومع أنه لا يبدو أنه ترك مجموعات رسائل إلا أن كتاباته الأدبية معروفة على نطاق واسع، وهذا ما يذكرنا ثانية بتلك العلاقة المهمة بين المسؤولية البيروقراطية والإنتاج الأدبي في حياة العديد من الكتاب المرموقين.

ولكن بالرغم من الصفات المعروفة والمطلوب توافرها في كاتب السر (والموضحة في هذا الفصل والذي يليه) وبالرغم أيضاً من الصفات الخيالية نوعاً ما أو المفضلة في الحد الأدنى، إلا أنه لا يوجد ذكر لها في أدب السيرة، وأكثر من ذلك فإن بعض عبارات التقدير والعرفان من مثل «وقد تفوق في الأدب والشعر»، أو حتى في الإنشاء، التي قد يتوقع المرء قراءتها عند الحديث عن كاتب في أعلى مرتبة، ليست بالعبارات التي يكثر ذكرها. كما أن الإقرار بأن كاتباً معيَّناً كان من حفظة القرآن ليست شائعة كذلك، برغم أنها واحدة من الشروط المطلوبة في الكاتب، فما هو إذن الشيء الذي قد يفترضه المرء بخصوص مستوى المعرفة بالقرآن الكريم عند أولئك الكتَّاب الذين لم يذكر مدى إتقانهم لهذا العلم؟ هل نسلم جدلاً أنهم قد حفظوه وأن من ذكر في مصادر السيرة هم فقط الذين أبدعوا بصفة خاصة في هذا المجال؟ وهل إغفال أو السهو عن ذكر هذه المعلومات له أهميته أم لا؟ وهل كان ثمة شيء من الإهمال أو حتى الازدراء لطبقة الكتاب فنتج عنه إغفال ذكر العديد من إنجازاتهم في المصادر المتأخرة؟

إن قراءة معمّقة لمصادر السيرة تكشف لنا عن شيء من عدم الاستقرار المتكرر في رئاسة الديوان، أو في منصب كاتب السر. ولم يكن عدم الاستقرار هذا من جرّاء تبديل الرؤساء بانتظام فالمدة المقررة للبقاء في المنصب بالنسبة للعديد من الكتاب هي سنتان وفي معظم الحالات أكثر من ذلك، بل كان هنالك في بعض الأحيان تغيير مؤقت بعد وفاة الحاكم أو عند طرد الكاتب لأسباب معينة أو نتيجة انتقاله إلى بلد آخر، ومع ذلك قد يحدث أحياناً أن يعاد الكاتب نفسه إلى المنصب عينه، والمثال على ذلك أحمد بن فضل الله الهروي (ت. 829هـ/ 1426م) الذي شغل منصب كاتب السر، ثم طرد من منصبه وما لبث أن عاد إليه بعد شهر واحد[132].

الفئة الثانية من الكتّاب الذين قدم محقق كتاب الموصلي معلومات عن سير حياتهم هم كتّاب الإنشاء في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، في هذا القسم نجد صورة أكثر وضوحاً عند التمييز بين كاتب السر وكاتب الإنشاء من حيث أوراق اعتمادهم العلمية. وهنا يقدم لنا أدب السيرة ثانية تحليلاً فريداً من نوعه. ففي هذه الحالة

عينها يبين لنا أن دور كاتب السر كان منصباً بيروقراطياً ودبلوماسياً أكثر من أي شيء آخر، في حين أن دور كاتب الإنشاء يتطلب مهارات أدبية فائقة، ولعل هذا يعدّ تمييزاً واضحاً من جهة، إلا أنه ليس التمييز الذي يبرز للمقدمة فوراً في مصدر آخر مثل كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، إضافة إلى ذلك هناك دلائل تشير إلى وجود مزيد من المكايد والخلافات في طبقة كتاب السر، حيث إن هذا المنصب من أكثر المناصب المرغوبة التي يُسْعى إليها ومع ذلك قد يعين فيه أفراد قد لا يكونون مناسبين له.

من الحقائق المعروفة جيداً عن كتَّاب الإنشاء أن معظمهم كانوا من ذوي المؤهلات العالية في الشعر والنثر. وليس ثمة احتمال لوجود كاتب مجيد في نثر الرسائل، مثلاً، لا يتقن فن الشعر أيضاً هذا إن لم يكن مبدعاً فيه، ولكن الكتَّاب أنفسهم هم الذين يحكمون -وربما بدوافع شخصية- على مدى إتقان وإجادة كاتب ما لواحد أو أكثر من هذه المعارف، أو ربما مدى عدم إجادته في أحدها كما حاولت أن أبين في الفصل الثاني، من هذه الأمثلة الكثيرة الواردة في كتب السيرة مثال عبد الله بن قلاقيس الأزهري (ت 567هـ/ 1172م) وهو «شاعر مميز من أبرز أدباء الرسائل المرموقين»[133]، أو مثال محمود بن حميد الدمياطي (ت 553هـ/ 1158م) الذي لقبه القاضي الفاضل بـ «صاحب البلاغتين، الشعر والنثر»[134]. قد يستنتج المرء من هذه المعلومات أن الشعراء المميزين كانوا على الأغلب أفضل المرشحين لتبوء منصب كاتب الإنشاء بسبب مقدرتهم على نظم شعر المديح للحاكم ولأسرته، وخير مثال على ذلك علي بن محمد بن النبيه (ت 619هـ/ 1222م) الذي كتب الكثير من قصائد المديح للأسرة الأيوبية ومن ثَمّ أصبح رئيس الديوان[135].

من الصفات الأخرى التي تميز كاتب الإنشاء التي تحدث عنها أدب السيرة صفة التقى وحب الكتب، ابن شيث الذي تحدثنا عنه كثيراً في هذا الكتاب كان معروفاً بورعه. ولعلنا نذكر أنه في كتابه «معالم الكتابة» جعل التقى واحدة من صفتين رئيستين اثنتين يجب توافرهما في الكاتب. وكذلك كاتب الإنشاء الآخر والمؤرخ علي بن يوسف القفطي (ت 646هـ/ 1249م) كان على ما يبدو «لا يحب شيئاً في الحياة قدر محبته للكتب»[136]. وهناك آخرون مثل عماد الدين الشيرازي (ت 682هـ/ 1284م) ممن اشتهروا بحسن

خطهم، والشيرازي، كما ورد في المصادر «التفت إلى الكتابة وأفاد الناس منه»[137]. ومحمد بن عثمان بدر الدين الدمشقي (ت 703هـ/ 1304م) كان كاتب إنشاء في سورية واشتهر بجمال خطه «إلا أنه يأتي في الإنشاء بأشياء غير مرضية»[138].

وهناك كاتب آخر هو يوسف بن محمد جبريل (ت 741هـ/ 1341م) اشتهر بسوء خطه لكنه كان أهلاً للثقة[139] وهذه صفة يبدو أنها ساعدته كثيراً في تعيينه في منصب الكاتب، من المؤسف أننا لا نجد كثيراً من الأمثلة الدالة على أن صفات الاستقامة والأمانة تغلب المهارات في العمل؛ ذلك أن أمثلة كهذه قد تعطينا مزيداً من الدلائل على فرضية مقبولة ظاهراً تفيد بأن الحكام كانوا يهتمون بمن يثقون به قدر اهتمامهم بالقدرات الإدارية للكتبة العاملين لديهم، لكن الدلائل التي بين يدينا تشير أن الأوساط البيروقراطية في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث كانت في بعض الأحيان مرتعاً لانعدام الثقة وللفساد كما أشرت آنفاً في هذا الفصل، وما نعتقده الآن هو المزيد من البراهين عن الصنف الذي إليه ينتمي يوسف بن محمد جبريل لدعم هذه الفرضية.

يوضح المثالان الأخيران المذكوران آنفاً مدى الفائدة، وكذلك الإحباط اللذين يقدمهما لنا أدب السيرة، يقدم لنا هذا الأدب من ناحية معلومات قيمة عن حياة العلماء في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث، ومن ناحية أخرى فإن افتقار هذا الأدب للتفاصيل الداعمة يجعلنا نطرح أسئلة مهمة حول مدى نفوذ فرد من الأفراد أو ما إذا كان شخص ما قد أتيحت له الفرصة ليصبح كاتب إنشاء بسبب مهاراته في الخط وليس لمجرد أنه أهل للثقة.

والتنوع الفكري عنصر مهم جداً في الخلفية الثقافية عند طبقة الكتاب، فكان العلماء ذوو الاختصاصات في العلوم الكثيرة المختلفة يصبحون كتّاب إنشاء، وتضمنت هذه الاختصاصات التاريخ والقانون والطب بالإضافة إلى المعارف الأدبية الأكثر وضوحاً. أما المعرفة باللغات الأجنبية فقلما تذكر عند الحديث عن مؤهلات كاتب الإنشاء، علماً أن أحد الأمثلة، مثل شرف الدين الزرعي (ت 711هـ/ 1312م)، يعطي مزيداً من الأهمية لفكرة أن المعرفة باللغات الأجنبية غدت أكثر أهمية إبان العصر المملوكي، ويبدو أن

المعتقدات الدينية عند كاتب ما لم تذكر إلا إذا كان الكاتب قد ارتد عن دينه واعتنق الإسلام، وخير مثال على ذلك الأسعد بن ماماتي (ت 606هـ/ 1210م) المؤرخ الثقافي الشهير الذي كان مسيحياً واعتنق الإسلام في بداية حكم صلاح الدين، أما ماجد بن النحال مجد الدين (ت 843هـ/ 1440م) فكان من أسرة مسيحية تقطن أحد أحياء القاهرة القديمة وعمل في خدمة السلطان نوروز الحافظي الذي «أجبره على اعتناق الإسلام»[140]. وبالرغم مما قيل عن أنه قد أعطي الخيار قبل اعتناقه الإسلام إلا أنه على ما يبدو قد أجبر على اختيار الإسلام لأسباب مهنية، والمثال الآخر يتمثل في محمد بن فضل الله (ت 732هـ/ 1332م) وهو قبطي صاحب أفضل سمعة لكاتب إنشاء في العصر المملوكي، يبدو أنه في البداية أكره على اعتناق الإسلام فقاوم، ولكن بعد مدة من التأمل اتخذ الإسلام ديناً جديداً له[141]، ونحن نعرف أن الأقباط تولوا مناصب لها نفوذ في بلاط الحاكم في العصر الفاطمي، ولكن يبدو أن نفوذهم هذا تراجع فيما بعد. ويعد «كتاب المفتاح المنشا» لابن الأثير واحداً من المصادر القليلة جداً التي تحدثت عن كتَّاب من غير المسلمين عند الحديث عن أدب الكتابة، ففي هذا العمل يخصص المؤلف قسماً صغيراً للحديث عن نوع الأدعية المستخدمة في الرسائل الموجهة إلى أشخاص غير مسلمين، لكن معلومات من هذا النوع نادرة، ويبدو أن أدب السيرة يمثل روح القسم الأكبر من الأدب الذي يؤكد على جوهر طبيعة الإسلام وهوية المجتمع آنذاك.

في موضع سابق من هذا الفصل عرضت لبعض الأمثلة لمختلف الوسائل التي يستعين بها الكتَّاب للوصول إلى هذا المنصب، ولكن ليس ثمة أدنى شك في أن هؤلاء الكتَّاب لا بد من أن يتوافر فيهم من حيث المبدأ عدد من الشروط والمؤهلات الفكرية والشخصية ليكونوا خير ممثلين لبلاط الحاكم والقدوة في الفصاحة والبلاغة وسعة المعرفة، وليكونوا أيضاً أهلاً لثقة الحاكم. ولكن ليس واضحاً إلى أي مدى كان الكاتب متفوّقاً في جميع مجالات الشروط التي ذكرها ابن الأثير لهذا المنصب، ولا شك أيضاً أن هذا النظام برغم كونه يعمل بطريقة حسنة على ما يبدو ودون أي دلائل على وجود تصدع في العمل يوجب تغييراً ما فإن السبيل الذي كان يسلكه بعض الكتاب للوصول

إلى مناصبهم تتخلله تسهيلات من نواحٍ مختلفة، من هذه النواحي كانت صلات الأب، كما وضحنا آنفاً في هذا الفصل، ومنها أيضاً صلة القرابة من طريق الزواج، حيث كانت تشكل ضمانة في هذا المضمار مثلما حصل مع يوسف بن أسعد صلاح الدين (ت 749هـ/ 1349م). فقد كانت له قرابة مصاهرة مع الصاحب غبريال الذي سعى له ليشغل منصب كاتب إنشاء في الديوان، لكنه أبعد عن المنصب وأخرج من الديوان عندما انحل رباطه الزوجي[142]. ويبدو أن تمسك المرء بسلطته ليس من حق أي كاتب كما اكتشف ذلك أحمد بن عبد الله ابن الغنام عندما عينه والده هو وأخاه في منصب كاتبي الإنشاء في مصر، ولكن ما إن توفي والدهما حتى صرفهما الحاكم الجديد[143]. إلى جانب ذلك ينبغي أن نذكر أن المكايد كانت في أغلب الأحيان تتصل بحياة ومصير الكاتب كحال شرف الدين الدماميني (ت 803هـ/ 1401م). كانت بداية عمله ناجحة ومتألقة وعبرها وصل إلى أعلى المراتب في وزارة المالية، وانتقل بعدها للعمل في الإنشاء في الديوان، حيث سعى للارتقاء لمنصب كاتب السر، تقول المصادر: إنه «لم يكن قادراً على فعل ذلك فاعتقل ثم أُطلق سراحه، لكنه ما لبث أن توفي مسموماً»[144].

تبين الفقرات السابقة ذلك الدور المؤثر الذي يضطلع به الكاتب في إدارة شؤون الدولة اعتماداً على قواعد أساسية في خلفيته الثقافية ووضعه، فلكي يصبح المرء كاتباً يتعين عليه أن يحقق مستوى معيناً من العلم والمعرفة، ولكن ينبغي على الباحث أن يكون حذراً، فلا يقبل آراء ابن الأثير – على سبيل المثال – على علاتها، فقد حاول ابن الأثير أن يبين أن مستوى معرفة الكاتب وسعة علمه شيء ينفرد به، ولا سيما أن عوامل متعددة تبدو ذات أثر قوي على مقدرة الكاتب في احتفاظه بمكانة عليا في حاشية الحاكم، وفي الوقت عينه غالباً ما يبدو منصبه هذا عرضة لعدم الاستقرار.

ولا بد من القول: إن أحد الأسباب التي جعلت الكتَّاب يتركون انطباعاً عميقاً ودائماً في الأدب وفي المجتمع في ذلك العصر هو تجانسهم، وحيث إننا نعرف ما نعرفه عن المنافسات الشخصية في المجتمع الإسلامي فإنه من نافلة القول الادعاء أنه لم تحصل نزاعات بينهم، وما قاله الغزالي في شأن قوتهم كجماعة من القوم يجب أن يؤخذ على

محمل الجد: «يبين التاريخ أن القلاقل العسكرية والتغيرات التي تحدثها قلما تؤثر سلباً في منصب الكتّاب الذين كانوا يكوّنون هيئة متراصة الصفوف نوعاً ما..»[145]. في المقابل نجد الوزراء غير متوافقين في بعض الأحيان في علاقاتهم بعضهم مع بعض. فمثلاً يذكر الغزالي كيف أن الصاحب بن عبّاد، الذي كان واحداً من اثني عشر وزيراً في خدمة الشاهنشاه (عضد الدولة) في ولاية الري، كان موضع «شتم وقدح» من الوزراء الأحد عشر الآخرين[146].

يعد الفصل الآتي امتداداً لهذا الفصل في بعض جوانبه؛ ذلك أنه يدخل في مزيد من التفصيل إلى خلفية الكاتب الثقافية ويركز بصورة خاصة على الصفات والخصال الأخلاقية والروحية والداخلية المطلوب توافرها فيه، إضافة إلى أنه يعرض تقويماً للعلاقة بينه وبين الوزير والحاجب.

الهوامش

1- الشكعة، الأصول الأدبية، ص 78. وما ذكر هو جزء من قصة توضح طبيعة العلاقة بين الحاكم والكاتب. وقد قيلت هذه الكلمات بعد أن طلب الكاتب علي بن زيد ثلاثة أشياء من الحاكم قبل أن يقول ما يريده هو في هذه الصفقة، إن صح القول. فهي توضح ذاك المستوى الرفيع من الثقة بين الطرفين.

2- See Gully, Grammar and Semantics in Medieval Arabic, Chapter 3 esp.

3- للاطلاع على بحث عام حول تطور طبقة الكتاب انظر Sellheim and Sourdel, "Katib" art. pp. 754 - 757

4- Al-Qadi, "The impact of the Qur'an", p. 286.

5- سلّام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 286.

6- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1)، ص 274.

7- القاضي "The Impact of the Qur'an", p. 287. لا يمكن المغالاة في الحديث عن إسهام عبد الحميد في فهمنا لدور الكاتب وشروط منصبه. فهو حين يذكر شرط معرفة الحساب في القائمة يكون قد استبعد ضرورة توافر مستوى جيد من معرفة الأعداد التي أصبحت من الأسس الجوهرية للانشغال المتزايد للكاتب في الأمور المالية كما سنرى في موضع لاحق من هذا الفصل. وقد يجد القارئ معلومات مشابهة في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة حيث يستشهد بقول فارسي شهير ينص على أنه «لا يمكن للمرء أن يكون أهلاً لمنصب الكاتب ما لم يكن خبيراً في الري وشق القنوات والفلك والتقويم، والأوراق والمقاييس. انظر الغزالي al-Ghazali, Book of Council for Kings, p. 114, n. 4 فبعض هذه الصفات قد ذكرت في معرض الحديث عن واجب الكاتب في تقدير الضرائب.

8- Horst, "Besondere For men der Kunstprosa", p. 225.

9- Beeston, "The Role of Parrallelism", p. 180.
10- انظر أيضاً الفصل السادس والإشارة إلى عمل Schonig على وجه الخصوص.
11- Sellheim and Sourdel, "Katib" art., p. 755.
12- Al-Azmeh, Muslim Kingship, p. 96 and pp. 94 - 101 esp.
13- مقدمة محقق كتاب الحلبي بعنوان حسن التوسل.
14- من أجل هذا النص وغيره انظر Mottahedeh, Loyalty and Leadership, p. 143.
15- Martin Irvine, The Making of Textual Culture, introduction, p. xiv. غير أن هذا المؤلف لا يذكر المجتمع الإسلامي في سياق حديثه عن «مجتمع الكتاب» لكن التوازيات والعلائقية واضحة كل الوضوح لا يمكن تجاهلها.
16- نفسه، ص 2.
17- Anderson, Imagined Communities, p. 15.
18- نفسه، ص 15.
19- Sellheim and Sourdel, "Katib" art., p. 75.
20- See Adrian Gully, The Sword and the Pen, pp. 407 ff.
21- الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص 9.
22- سلاّم، الأدب في العصر المملوكي، المجلد (2) ص 5.
23- Mottahedeh, Loyalty and Leadership, pp. 90-91.
24- Perelman, "The Medieval Art of Letter-Writing", p. 100.
25- يوجد أوجه شبه عديدة بين أسلوبه في المقاربة وأسلوب ابن هشام الأنصاري، النحوي الشهير في القرن الثامن/ الرابع عشر. فأسلوب كل منهما، وعلى وجه الخصوص في معالجتهما للتوتر القائم بين علماء الأسلوب وعلماء النحو ومجالات كل منهما، أرض خصبة للمزيد من الدراسة، وللمزيد من المعرفة انظر مقالة Gully بعنوان «Two of a Kind».
26- انظر مقدمة كتاب المثل السائر، المجلد (1) ص 13-12.
27- سلاّم، الأدب في العصر الأيوبي، ص 85.
28- نفسه، ص 78.
29- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (8) ص 246.
30- نفسه، ص 247.
31- Chamberlain, Knowledge and Social Practice, p. 138.
32- See Gully, Grammar and Semantics in Medieval Arabic, Chapter 3.
33- انظر الموصلي، البرد الموشى، ص 207.
34- Makdisi, The Rise of Humanism, p. 286.
35- Mottahedeh, Loyalty and Leadership, p. 91.
36- نفسه، ص 92.
37- نفسه، ص 92.

obeikandl.com

38- نفسه، ص 110.
39- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 5.
40- سلاّم، الأدب في العصر المملوكي، المجلد (2) ص 67.
41- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 6. كان المنصب ذا نفوذ كبير حتى إنّ الكاتب في بعض الأحيان يأتي قبل الوزير في علاقته مع الحاكم. سنتحدث عن هذا الموضوع بمزيد من التفصيل في هذا الفصل وفي الفصل الخامس.
42- الموصلي، البرد الموشى، ص 18.
43- Sellheim and Sourdel, "Katib" art., pp. 755-6.
44- سلاّم، الأدب في العصر الأيوبي، ص 192.
45- العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 10.
46- Droubi, A Critical Edition, vol. 1, p. 9.
47- نفسه، ص 8.
48- سلاّم، الأدب في العصر المملوكي، ص 20-18.
49- لم يكن من غير المعتاد أن يكتب الشعراء قصائد في مدح طبقة الكتاب كما هي. انظر بعض الشواهد لمثل هكذا شعراء بارزين مثل ابن المعتز في كتاب الأصول الأدبية للشكعة، ص 83.
50- من أجل ذلك انظر سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 213. مثل هذه الامتيازات لم تكن حكراً على كتاب الرسائل. يبدو أن كاتباً اسمه شهاب الدين أحمد بن عبادة الحلبي (ت 710/ 1310) قد حظي بسلطة شخصية قوية نتيجة لحظوته عند السلطان الناصر، وكانت سلطته قوية جداً حتى إنه عندما تعرض لنقد من الموسوعي النويري تمكن من الحصول على أمر بجلد النويري. انظر Little,"Notes on the early nazar al-haşş, p. 242".
51- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 99.
52- الشكعة، الأصول الأدبية، ص 80.
53- سلاّم، الأدب في العصر المملوكي، المجلد (1) ص 54 - 55.
54- الموصلي، البرد الموشى، ص 212.
55- نفسه، ص 215.
56- نفسه، ص 215.
57- ابن شيث، معالم الكتابة.
58- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 135 - 136.
59- Mottahedeh, Loyalty and Leadership, p. 110.
60- يحاول المؤلف Gully في مقالته المناظرات الأدبية بين السيف والقلم توضيح هذا الموضوع بمزيد من التأكيد يفوق المراجع السابقة. انظر Gully, The Sword and the Pen, passim.
61- Mottahedeh, Loyalty and Leadership, p. 170.
62- ابن شيث، معالم الكتابة، ص 85، وانظر أيضاً الفصل الأول من هذا الكتاب.

obeikandi.com

63- الشكعة، الأصول الأدبية، ص 86.

64- انظر الموصلي، البرد الموشى، ص 208.

65- نفسه، ص 224.

66- انظر ابن العبار، إعتاب الكتاب، ص 14 وص 25.

67- Ben Cheneb and Pellat, "Ibn al-Abbar" art., p. 673.

68- See Pellat, "Une charge contre les secretaire d'Etat attribuée a Gahiz». الفكرة التي أطرحها يؤيدها إعجاب الجاحظ العام بالكتاب وبطريقتهم في استخدام اللغة، وتفضيله لهم على الشعراء على الرغم من آرائه السياسية. انظر على سبيل المثال، الحلبي، حسن التوسل، مقدمة المحقق، ص 34.

69- انظر سلام الأدب في العصر المملوكي، المجلد (2) ص 42. فقد ضاعت روح الدعابة في الحديث عن الموقف عبر الترجمة التي لم تحسن نقل السجع في كلام الكاتب التعيس.

70- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 40.

71- ابن الأثير، كتاب المفتاح المنشا، مقدمة المحقق، ص 26. يبدو أن القصة كانت أقل وضوحاً من هذه؛ إذ من الواضح أن ابن الأثير كان موضع ازدراء العادل أحد أشقاء صلاح الدين، وأنه لم يبق في منصبه هذا إلا نتيجة لحماية الأفضل والملك وشقيق العادل له. ولكن عندما طرد العادل القاضي الأفضل من دمشق أجبر ابن الأثير على مغادرة دمشق أيضاً ولكن ضمن صندوق خوفاً على حياته.

72- See Makdisi, The Rise of Humanism, appendix A, p. 364.

73- نفسه، ص 364.

74- Chartier et el, Correspondence, p. 7

75- نفسه، ص 7.

76- بالرغم من بغض إدوارد سعيد لكلمة «النخبة» لأنه يقول إنها من بعض كلام المستشرقين عن المجتمع العربي والإسلامي، إلا أنه من العسير إيجاد وسيلة ملائمة لوصف البيئة التي فيها كان الكتبة يعملون.

77- نفسه، ص 1.

78- Carter, "Humanism in Medieval Islam", p. 31.

79- نفسه، ص 4.

80- وذلك خلافاً للرسائل غير الرسمية. يقدم لنا Boureau وصفاً جميلاً لذلك حين يصف «الصداقة» بأنها «تعني علاقة تم اختيارها بملء الحرية، خلافاً لعلاقة التبعية (الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية)». انظر "The Letter-Writing Norm", in Chartier et al, Correspondence, p. 51.

81- Goldberg, Writing Matters, pp. 238-9 مع أن هذا المؤلف لا يذكر بالطبع المجتمع الإسلامي.

82- تعد مقالة Sellheim and Sourdel وبالرغم من عمومية ما تتضمنه من معلومات غير مفيدة نوعاً ما في تحليل المستويات المعقدة لعمل الكاتب التي تطوّرت في العصور اللاحقة وتحديداً في المدة المتأخرة من الإطار الزمني موضوع هذه الدراسة.

83- سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 81.

84- ابن الأثير، المثل السائر، المجلد (1) ص 28. من الجدير ذكره في هذا المقام أن ابن الأثير يستخدم لفظة «الفن» عند الإشارة إلى صنعة الإنشاء التي تعني فقط كتابة الرسائل عموماً، هذا إن نظرنا إلى إطار بحثه. للمزيد من البحث في «الطبع» والموهبة التي يرجح أنها مأخوذة عن الشعر انظر Abbas, Arabic Poetic Terminology, p. 211 أو انظر Ouyang, Literary Criticism in Medieval Arabic-Islamic Culture, pp. 176-7.

85- ابن الأثير، المثل السائر، المجلد (1) ص 48.

86- نفسه، المجلد (1) ص 27. وما يجدر ذكره أيضاً أنه في عمل آخر بعنوان «الوشي المرقوم في حل المنظوم» يعترف ابن الأثير بأنه من غير المتوقع أن يكون الكاتب خبيراً في كل العلوم، بل يجب أن يكون قادراً على «أن يشم جوهر» كل علم منها. انظر مقدمة محقق «كتاب المفتاح المنشا» ص 13.

87- Cicero, De Oratore vol. I: Books I and II, pp. 13 and 17.

88- يقدم Carter تصنيفاً دقيقاً ومقبولاً للأصناف الخمسة المميزة للعلوم الإنسانية في العصر الإسلامي الوسيط، وهي العلوم الفلسفية والأدبية والفكرية والدينية والفقهية. انظر Carter, "Humanism in Medieval Islam, passim.

89- نفسه، ص 37. لكن هذه الحجة يجب ألا تقبل دون تحفظ وخصوصاً لأنها تخالف رأي المقدسي بأن الشعر كان واحداً من تلك العلوم الإنسانية. هذا الموضوع بحاجة للمزيد من البحوث.

90- يقال إن سحبان أبلغ خطباء العرب في أوائل العصر قبل الحديث.

91- ابن الأثير «كتاب المفتاح المنشا» ص 51.

92- Makdisi, The Rise of Humanism, p. 335.

93- Carter, Humanism in Medieval Islam, p. 31.

94- كتاب Sellheim and Sourdel "Katib" art ص 55 على سبيل المثال، وكتاب Van Berkel, A Well-Mannered Men of Letters; Makdisi, The Rise of Humanism, Appendix A, pp. 355

95- لاحظ اقتراح الحلبي أن رسائل القدماء يجب أن تدرس وبالتأكيد يجب أن يستعان بها لما فيها من قدرة على تدريب العقل ولما فيها من عبارات رائعة، ولكن لا ينبغي أن تحفظ عن ظهر قلب، انظر كتابه بعنوان: حسن التوسل، ص 93. غير أنه يوضح هذه العبارة لاحقاً حين يقول: إن هذه العناصر الجميلة في الكلام «يجب أن تحفظ وتصان ولكن دون أن تحفظ عن ظهر قلب»، المصدر نفسه ص 94.

96- يضيف القلقشندي لهذا الشرط العلوم القرآنية الأخرى مثل معرفة «القراءات» السبع، والمتشابهات وكذلك معرفة تامة بالرجال الذين ارتبطت أسماؤهم بها ومعرفة جيدة بالتفسير.

97- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 204. يقول ابن الأثير: خلافاً للعديد من العلماء من أبناء عصره إن معظم الأحاديث الشريفة هي موضع الاستخدام الدارج ومع ذلك يجب أن تحفظ عن ظهر قلب. ويصف أيضاً كيف أنه حفظ الروايات كلها حتى إنه يستطيع أن يقولها من الذاكرة مع توصيف لمناسبة قولها.

98- الحلبي، حسن التوسل، ص 72.

99- Al-Qadi, "The Impact of the Quran", p. 288. وكما يقول القاضي يجب على الكاتب أن يتقن ليس فقط مضمون القرآن، بل أيضاً «الصيغ الأدبية» فيه.

obeikandl.com

100- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 146 - 147 وص 152.
101- نفسه، ص 150.
102- ابن الأثير، المثل السائر، المجلد (2) ص 120.
103- انظر القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 150 - 151 وأيضاً المجلد (2)، ص 215، وقارن بينهما.
104- ابن الأثير، المثل السائر، المجلد (1) ص 25.
105- Fitzmaurice, "Classical Rhetoric and the Promotion of the New World", pp. 232-4.
106- Kennedy (trans), Aristole on Rhetoric, p. 197.
107- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 148.
108- الموصلي، البرد الموشى، ص 214.
109- هذا التصنيف ضروري ذلك أن الكتاب بحاجة لأن يعرفوا كيف أن العلماء البلغاء قادرون على الفخر بصفات قومهم وتفنيد صفات الآخرين.
110- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 168.
111- نفسه، ص 175.
112- للاطلاع على تقويم لهذا الوضع انظر Gully, "Two of a Kind".
113- ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل»، ص 11.
114- Berkey, "The Mamluks as Muslims", p. 164.
115- نفسه، ص 163.
116- Crone, Slaves on Horses, p. 90.
117- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (7) ص 19.
118- لا أقصد حين أقول هذا الكلام أن أقلل من التأكيد العسكري لبعض عبارات الاحترام والتبجيل أو «ألقاب الشرف» كما يقول Hillenbrand غير أنني أميل لرؤية العناصر العسكرية والإسلامية متداخلة بعضها ببعض ولا سيّما أن بعض الحكام من أمثال بيبرس كانوا فعلاً يعدون من حماة الإسلام. للمزيد من التفاصيل انظر Hillenbrand, The Crusades, p. 230.
119- Lewis, The Muslim Discovery of Europe, p. 77.
120- نفسه، ص 78.
121- نفسه، ص 78.
122- ابن الأثير، المثل السائر، المجلد (1) ص 46 - 47.
123- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 185.
124- نفسه، المجلد (1) ص 396.
125- نفسه، المجلد (1) ص 43 - 44.
126- Bosworth, A Maqama on Secretaryship, pp. 293-4.
127- Sellheim and Sourdel, "Katib" art, p. 755.
128- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 54 - 55.

obeikandi.com

129- وعلى سبيل المثال، السيوطي، «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» وابن تغريبردي «النجوم الزاهرة».

130- انظر البرد الموشى، ص 205. قد تعد «الإضافة الخاصة» المتضمنة معلومات السيرة للوهلة الأولى على أنها من وضع الموصلي نفسه. لكن الفحص الدقيق يكشف لنا أن المصادر العديدة المذكورة فيها لا يمكن أن تكون معروفة عند الموصلي.

131- هذه المعلومات مصدرها جرجي زيدان، وقد اقتطفها محقق كتاب البرد الموشى. لكن دقة هذه المعلومات بحاجة إلى المزيد من الدراسة. ومن ناحية أخرى، يوجد في مصادر كثيرة شك حول الكثير من أعمال القاضي الفاضل، وأنا شخصياً وجدت صعوبة بالغة في الحصول على أعماله.

132- الموصلي، البرد الموشى، ص 217.

133- نفسه، ص 229.

134- نفسه، ص 229.

135- نفسه، ص 231.

136- نفسه، ص 232.

137- نفسه، ص 234.

138- نفسه، ص 289. تؤكد هذه المراجع أهميةَ الخط الجميل حتى في العصور الإسلامية المتأخرة. فقد كان الخط الجميل دون شك واحداً من الاهتمامات الرئيسة في أدب الكتاب، كما يتبين ذلك من كتاب «رسالة الخط والقلم» لابن قتيبة (القرن الثالث/ التاسع) وعدّ الشيباني له واحداً من المشترطات الرئيسة الواجب توافرها لدى الكاتب (ابن عبد ربه، العقد الفريد، المجلد (2) القسم الرابع، ص 226 - 227).

139- نفسه، ص 240.

140- نفسه، ص 250.

141- نفسه، ص 238 - 239.

142- نفسه، ص 241.

143- نفسه، ص 242.

144- نفسه، ص 245.

145- Al-Ghazali, Book of Counsel for Kings, translator's introduction, p. xivi.

146- نفسه، ص 115.

obeikandl.com